الدين والثقافة
ومكانتهما في تطورالانسانية في الشرق الاوسط

الدين والثقافة
ومكانتهما في تطورالانساتية في الشرق الاوسط

مطبوعات آزادي

منشورات الحركة الشعبية

ـ ١٢ ـ

المحتويات

المقدمة.....ص٥
. الدين والثقافة، مكانتهما في تطور الانسانية في الشرق الاوسط.....ص٩
. الغنى الثقافي في المنطقة وتحول الدين الى سبب الصراع واللاحل.....ص 48
ـــ اقـــتراب الخـــط الـــديمقراطي لـــ PKK مـــن الغـــنى الـــديني والثقـــافي في المنطقة.....ص 111
. الفلسفة الابوجية ص١١٨
. الخاتمة ص١٤٥

المقدمة

لابد من ادراك ديالكتيكية العلاقة بين الزمان والمكان لان ذلك يفتح افاقاً واسعة امام فهم اشمل للتاريخ والواقع والمستقبل. فالعلاقة بين الزمان غير المحدود، والمكان المحدود بطبيعته هي االعلاقة بين التاريخ والجغرافية. حيث ان تفاعل هذين العنصرين وتبادلهما التاثير كل مع الاخر يؤدي الى رسم لوحة جديدة. فلا يمكن قط ان ننكر دور الجغرافية في رسم التاريخ، فكم من منطقة جغرافية لعبت دوراً في التاريخ وفي رسم المستقبل بسبب ماتحمله موقعها من اهمية بهذا الشكل او ذاك. والشرق الاوسط هو ابرز مثال على هذه الحقيقة فليس خطئاً القول ان تاريخ الشرق الاوسط مدين لجغرافيته سواء بموقعها الاستراتيجي او بامكانات الحياة الاقتصادية الهائلة منذ فجر الانسانية وحتى الان. واذا كان شرقنا هذا يحتل هذه الساحة الجغرافية الهامة فانه قد شارك بفعالية في رسم تاريخ الانسانية برمتها، ليس هذا فحسب فما مقولة " التاريخ يبدأ من هنا " الا تجسيداً لحقيقة اكدتها وتؤكدها آلاف الدراسات الاثرية والتاريخية والعلمية.

ان الابداع الثقافي في هذه المنطقة وكنتيجة لصراع انساني هائل، قد ظهر باروع اشكاله قياساً الى مستوى تطور الوعي في كل مرحلة من مراحل التاريخ. حتى يمكننا وبكل وضوح ان نقول ان الشرق الاوسط هو منبع الثقافة والحضارة الانسانية برمتها، بما فيها الثقافة الغربية الان، والثقافة اليونانية التي كانت تدعى امومتها لكل امومتها لكل الثقافات العالمية. حيث تأكد وبما لا يقبل الجدل ان هؤلاء قد اكتسبوا او استوردوا الثقافة الشرق الاوسطية واضافوا اليها اكثر مما ابدعوا من ثقافة خاصة بهم. وبذلك كانت هذه المنطقة مركز اشعاع ثقافي وحضاري، ارسل بانواره الى كل اتجاهات العالم الذي لا بد له ان يعترف بمديونيته، ويقبل بها كاحدى الحقائق التاريخية.

اذا كانت الثورة النيولوتيكية قد بدأت هنا بشكل يسبق الغرب آلاف السنوات فهذا يعني بالتاكيد مقدار الاسبقية في بناء الحضارة

وانطلاقها على هذه الارض. فهنا اخترعت اول كتابة، وظهرت الاساطير والاديان والاداب والموسقى. مثلما ظهرت المدن والحقوق والدول أو الدويلات. وتؤكد الابحاث صحة ذلك في كل الحفريات التي يجريها العلماء والبحاثة . فهنا موطن الحضارات السومرية والاكادية والبابلية والاشورية وغيرها الكثير من التي ساهمت في دفع عجلة الانسانية الى الامام.

استمرت هذه الانطلاقة في العهد الاقطاعي ايضاً. ويمكن ان نرى المستوى الراقي الذي وصله الفكر والثقافة البشرية من خلال الاديان التوحيدية (اليهودية والمسيحية و الاسلام)، كأرقى اشكال تطور الديانات في العالم بشكل مترافق مع التطور الفكري.

الشرق الاوسط هو منبع الحضارات ومستودع الثقافات حيث يملك رصيداً ثقافياً يمثل تراكم الاف السنوات من الخلق والابداع.لكن آثاره وابداعاته تعرضت للطمس ولمحاولات القتل عبر مختلف المفاهيم اللانسانية. وغدت المساحة الجغرافية بما تحمله من خيرات وموقع جغرافي وسياسي مهم، عاملاً اساسياً في رسم تاريخ المنطقة. ومادامت كل تلك المحاولات المختلفة الاشكال والاهداف والاتجاهات لم تتمكن من النيل من اصالة هذه الثقافة وان كانت قد اوقفت تطورها، فانها بالتاكيد ستنهض من جديد تدافع عن حقوقها عبر تحقيق التطور الانساني الواجب والمفروض.

الشرق الاوسط الذي احتضن اعظم الاديان، وكان مهد الحضارات، والذي كان يعيش تطوراً هائلاً في الوقت الذي كانت اوروبا تحيا عصر الظلمات، لم يتمكن من تحقيق التجديد. وهذا تخلف عن ركب الانسانية وتخلف عن الامم والشعوب الاخرى. في نفس الوقت الذي تمكن فيه الغرب بفضل الاصلاحات والتغيرات والثورة التنويرية من تحقيق وتائر متسارعة للتطور. وفي مركز هذه القضية يمكن ان نرى مسألة تناول الدين حيث لم يتمكن الشرق من احداث التجديد والانطلاق في هذا الموضوع بالذات فانغلق على نفسه. والدين الذي لعب دوراً تقدمياً بات عقبة جدية امام تحرر الفكر الانساني وانطلاقته نحو آفاق العلم والتطور.

لسنا هنا بصدد انكار دور الدين الرائع في مسيرة الانسان نحو الامام ، انما نتحدث عن ان التطورات اللاحقة عبر كل السنين كانت

تفرض تطوراً منسجماً في تناول الاديان ايضاً. هذا مالم يحققه الشرق. ومن هذا المنطلق يقول قيادة الحزب: «تمكن الغرب من حل قضية الدين وبهذا تمكن من فتح الشرق عشرات المرات »

أي ان عدم تناول الدين بشكل جديد وعدم التخلص من الدوغمائيات المتخلفة والافكار الخاطئة ، والاصرار على مقولات الاف السنين السابقة وكأنها حقائق ابدية لا تقبل النقاش، يسد كل السبل امام امكانية تحقيق التطورات. وإلا فان التراكم الثقافي في الشرق الاوسط يشكل ارضية هائلة ويعطي فرصة رائعة لتحقيق اوسع وارقى اشكال التطور، لكنها تبقى مجرد ارضية فقط اذا لم يجر استخدامها بدقة وابداع. وهذا بالاصل لا يشكل انكاراً أو ابتعاداً أو تخلياً عن الاصالة قط، بقدر ما تمثل حماية لها وتجديداً.

أي انه بذلك فقط يمكن صياغة تركيبة (سنتز) جديدة بديلة شاملة للثقافة، وبشكل خاص للدين الذي يمثل العمود الفقري للثقافة في الشرق الاوسط.

هذا الكتاب (الدين والثقافة) محاولة جادة في هذا الطريق الصعب والوعر والشائك. واذا لم يكن قادراً على الايجابة عن كل التساؤلات، فهو بالتاكيد سيمهد السبيل امام نظرة شاملة للاديان تسمح بفتح ابواب النقاش واسعة حول قضايا ساخنة اساسية تهم كل انسان يعيش على هذه الارض في هذه المرحلة. وفي محاولة لبناء الانسان الجديد بمقاييسه الثقافية والحضارية والديقراطية. فهذا العمل سيكون مساهمة فكرية في دفع النقاش حول قضايا انسانية هامة كالدين والثقافة،. وكلنا امل ان يصل هذا الكتاب بقارئه الى الهدف المتوخى منه.

الفصل الأول

الدين والثقافة، مكانتهما في تطور الانسانية في الشرق الاوسط

أ ـ جذور التطور الديني والثقافي ودوره في التطور المادي والمعنوي للبشرية.

ب ـ اكتساب الأديان البعد الايديولوجي ومكانتها في التحول الإجتماعي.

ج ـ غنى التطور الثقافي والديني في الشرق الاوسط وأسبابه.

١ ـ سومر وآكاد

٢ ـ بابل

٣ ـ الفراعنة

٤ ـ الزردشتية

٥ ـ المانوية

٦ ـ اليهودية

٧ ـ المسيحية

٨ ـ الإسلامية.

د ـ النتائج التي ترتبت على الغنى الثقافي والديني في المنطقة في الميادين الايديولوجية والإجتماعية و السياسية.

هـ ـ آثار الواقع الديني على انسان الشرق الأوسط.

الدين والثقافة، مكانتهما في تطور الإنسانية في الشرق الأوسط

أ ـ جذور التطور الديني والثقافي ودوره في التطور المادي والمعنوي للبشرية.

يعتبر تاريخ الإنسانية تاريخ الجهد وإبداع القيم المعنوية، وتاريخ الإنتاج والعمل والكدح. حيث ينحصر العامل الاساسي الذي فصل الانسان عن الحيوان في هذا الاطار. وعندما بدأ الإنسان بالعمل تمكن من اختراع أدوات الإنتاج لتلبية حاجاته المادية الاساسية. فدور العمل هو الاساس في جعل الإنسان إنساناً، وهذا ما تم إثباته في تاريخ البشرية. وفي نفس الوقت أثبتت أن التجمعات البشرية الأولى قد تكونت من أجل تحقيق هذه الإحتياجات، وجعلها ممكنة من خلال جمع القوى اللازمة لإداء العمل. وبهذا الشكل ظهر الإنسان لأول مرة في التاريخ ككائن اجتماعي واعي. وفي هذه النقطة بالذات يمكننا رؤية الدور الأساسي للعمل ووسائله في الارتقاء بالإنسان من المرحلة الحيوانية إلى المرحلة الإنسانية. وهو نفس السبب الذي جعل الحيوان غير قادر على الوصول إلى هذه المرتبة. وذلك لعدم استطاعته ممارسة العمل وعدم تشكل الوعي لديه. وتظهر هذه الحقيقة في البدايات الأولى لظهور التجمعات البشرية والتوجه نحو تكوين مجتمع بدائي. لقد كان للفرد في هذه المرحلة دوراً كبيراً، خاصة في مرحلة تكون المجتمع الطبقي. لذلك يطلق على هذه المرحلة عصر الأبطال.

إن من أهم عناصر الثقافة هي تلك العناصر المشتركة التي تحدد نمط التفكير والحياة ومسائل الروح والإيمان والتنظيم العام. هذه العناصر تشكل بصورة عامة الهيكل الأساسي للثقافة وبنيتها المميزة. كذلك فالفنون والمسائل الأخلاقية والحقوقية والعادات والتقاليد تعتبر من عناصر الثقافة

ايضاً. لذلك فإن الثقافة هي معيار مستوى الفكر الذي يعرف الحياة، وهي مرتبطة بتنظيم الحياة الإجتماعية، وقد ظهرت بظهور لمجتمع.

تشكل الثقافة منبع الحضارة الإنسانية، وهي التي تضع الحلول لكل مشاكلها، وأعطت الجواب لأسئلة الفرد والمجتمع. كذلك تعتبر اللغة عنصراً أساسياً من عناصر الثقافة، لدورها المهم في تنظيم الفكر وحياة الإنسان، وهي من أهم الوسائل التي نقلت الحضارة بثقافتها من جيل إلى جيل آخر، وساهمت في وضع الأسس المتينة لبناء حياة المجتمع الجديد. حيث اكتسب المجتمع الأخلاق وأصبحت لديه بعض القيم المعنوية. فعندما تجتمع عناصر الثقافة في إطار إجتماعي و يتحقق التطور الثقافي الذي يطور المجتمع طبقاً له، فان لكل طبقة في المجتمع دور في التقدم الثقافي. ساعدت المهن والحرف في انماء هذه الثقافة وذلك برفدها بعناصر التطور والارتقاء. ومع مرور الزمن وبإندماج هذه العناصر بعضها ببعض يتحقق التطور. فاستمرار التطور الديالكتيكي كوّن تبعاً له بعض المفاهيم الإقتصادية والسياسية. ولعبت هذه المفاهيم دوراً أساسياً في تطور وتنظيم الحياة الإنسانية. كما جلبت معها الكثير من الإبداعات التاريخية التي ساهمت في تخطي مراحل عديدة في التاريخ الحضاري للبشرية، مما ساعدت أيضاً على ظهور وانعكاس هذه التطورات على المجتمع، وبالتالي إلى ظهورنتائج اجتماعية هامة. وأيضاً طوّرت الفكر الإنساني بصورة شاملة.

عند الإشارة إلى الدين وعناصره ومصادره الأساسية، يجب علينا اخذ هذه التطورات بعين الاعتبار. فعدم تحليل الظواهر الطبيعية عند الإنسان أدى إلى نشوء الخوف منها، وكان هذا سبباً في إيمان الإنسان بالإله. مثلاً الخوف من الموت كان له التأثير الكبير على الإنسان، مما جعله يفكر بصورة ميتافيزيقية للبحث عن الحلول والقوى خارج إطار المحيط المادي الذي يعيش فيه. وبالإعتماد على قوى غيبية، أعتقد بأنها تستطيع أن تحميه من القوى التي تريد إلحاق الضرر به. لقد أدى هذا النوع من التفكير إلى نشوء نوع من الوعي البدائي، الذي أسبغ على المجتمع نوعاً من الاخلاق و من الارتباطات والعلاقات بالمحيط المادي. وتعمقت هذه العلاقات مع مرور الزمن بشكل كبيرو مؤثر. وهذا ماجعل

الإنسان ذا جوهر روحي ديني بالرغم من ميوله الوحشية وطبيعته العدوانية. وعلى هذا النحو كان ظهور العقائد الدينية القديمة نتيجة لعجز الإنسان أمام الطبيعة. وتكونت هذه المعتقدات الدينية من الخرافات المثالية إضافة إلى الشعور بالهيبة والاحترام للكهوف والجبال والأحجار والأشجار والشمس والقمر والحيوانات الضخمة والقوية. كما اعتقد بأن الهواء مليء بالأرواح المقدسة والشريرة. وهذه الأرواح - حسب معتقدات الإنسان البدائي - كانت بمثابة كائنات الغابة. إضافة إلى اعتقاده بأن للمرأة نوع من القوى الخفية، التي تمثل انتصار قوى الحياة أمام حقيقة الموت. وهذه القوى هي قوة الخصوبة التي كانت تديم تواجده وتعطي له مفهوم الاستمرار. لهذا فقد اتخذ الآلهة الأم إلهاً أولياً له، بإعتبارها ممثلة للحياة وديمومتها. وقد تخيل الإنسان بأن الآلهة الأم قد خلقت في البداية في داخل كهف ما.

إذا نظرنا إلى الآلهة الأم البدائية وابنها، يتضح لنا وحدة أصل الاسطورة في الخلق والتكوين، مع اختلاف في المسميات. فـ "عشتار وتموز" هما "إيزيس وأزوريس"، وفي نفس الوقت هما "أفروديت وأدونيس". ومن هنا يتضح لنا التشابه في مقومات الثقافة عند القبائل البدائية في ما قبل التاريخ. لهذا السبب بالذات فقد اكتسبت المفاهيم البدائية في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وبلاد ما بين النهرين أهمية تاريخية بالغة. والمثال على ذلك؛ بعد موت الإله أزوريس الذي قتله أخوه " سيت" وقطعه إلى قطع ونثره على وجه الأرض. تقوم الالهة "ايزيس" بجمع هذه القطع ثم تبتهل إلى الاله " ر ع " لكي يعيده الى الحياة لمدة يوم واحد، كي تستطيع أن تحصل منه على وريث، فيستجيب لها الاله ثم تحمل ايزيس من ازوريس وتمر فترة من الزمن فتنجب منه الاله " حورس " الذي يضحي بإحدى عينيه لكي يعيد اباه الى الحياة مرة أخرى، علماً بأن الاله "سيت" يمثل في الكتابات والرسوم الفرعونية على شكل انسان برأس خنزير. أما عشتار فتقوم بإحياء تموز بعد أن قتله خنزير. وأفروديت ايضاً تحيي ادونيس بعد أن قتله خنزير. لقد ارتبطت كل هذه الاساطير بالمحيط المادي للإنسان، فكانت اساطيره عبارة عن محاولاته لتفسير سير هذه الحياة والقوى المؤثرة فيها. ومحاولته التأثير عليها بالشكل الذي يمكنه من أقلمتها لصالحه، وبموجب احتياجاته. وفي عهود تعدد الآلهة كانت الاساطير هي

من اهم مظاهر الحياة الروحية لدى الانسان. وعلى هذا الاساس صور الانسان الكثير من قصص صراعاته في حياته اليومية وتطلعاته الى الغد.

عندما ظهرت الديانات التوحيدية - اليهودية ، المسيحية ، الاسلامية - فقد أهملت هذه الاديان دور الالهة الام، وحتى نستطيع القول بأنها تلاشت . فعند اليونانيين الذين كانوا من أصحاب الديانات المتعدد الالهة، والذين كانوا يحسبون أنفسهم نسلاً لهؤلاء الآلهة وأحفادهم، نرى «توئوغونيا »يتذكر العصور التي مضت، حيث يسجل التاريخ بأن الجنس الانثوي كان أقوى من الجنس الذكري وكان من النساء بطلات كثيرات. وكذلك يذكر « توئوغونيا » في كتاباته، بأن بروميتوس عندما ينجح في سرقة النار من الآلهة، ينزل عليه زيوس سخطه ولعناته بالرغم من معارضة زوجته واخته له. ثم يؤخذ بروميتوس الى جبل قاف ليتم تعذيبه هناك. لأن زيوس لم يكن يريد للإنسان تعلم المعرفة، لكي لايتحرر.

عند البحث في التاريخ، وحضارات الاقوام في المدن البدائية، نجد بأن هنالك الكثير من العوامل المشتركة والجوانب المتشابهة فيما بينها من الناحية الثقافية. حيث المصطلحات المحلية ونمط الحياة المشتركة، والآراء والافكار الادبية، والفلسفة، والعلوم، وعشق الجمال. هذه الاشياء كانت تقيم بصورة متشابهة تقريباً في كل المجتمعات البدائية. إضافة الى التشابه الكبير في العادات والتقاليد والمعتقدات الدينية الى حد ما. لكن حدوث الهجرات على مر التاريخ، كانت - الهجرات البشرية- سبباً في نشوء العادات و التقاليد المختلفة باختلاف الطبيعة الجغرافية من منطقة الى اخرى. اما الرحلات التجارية فقد كانت سبباً في نقل الثقافات بين الشعوب المختلفة.

لقد اخذت هذه المعتقدات الدينية مرتبة الصدارة في هذه المجتمعات. حيث قربت الشعوب الى بعضها من جهة، وساهمت في نشوء التناقضات والصراعات فيما بينها من جهة اخرى. ونرى ان الدين كونه حاجة تاريخية يتطور بتطور الانسان، وان التفاوت القبلي والسياسي كان سبباً في تطور وتعدد الالهة مما سد الطريق امام الاله الواحد. ولو عدنا الى التاريخ القديم ومراحل تطور حياة الانسان وكذلك تطوراته الدينية وتقيماته المادية، لتوضح بأنه كان لكل قبيلة اله او مجموعة آلهة كانت

ترعاها. وقد نظمت انماط عبادة هذه الالهة ومجالات نفوذها نوعاً ما من الشعور الخفي للدافع المتيقظ للإنسان في أخذ مكانه فيما بين المجتمعات. وعندما تجاوز الخيال الديني الحدود المادية، تكونت كائنات اسطورية وآلهة خرافية مشتركة، كانت تمثل له القيم العليا التي يستمد منها القوة ـ حسب الضرورة ـ و تساعده على تخطي الصعاب وتعينه على أن ينتصر على اعدائه في العصور القديمة.

أدت ظهور الافكار الدينية الى اعطاء نظرات جديدة للروح الانسانية والاخلاق من قبل الانسان البدائي. اضافة الى التطور الذي هذه الافكار من النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. حيث أصبح المجتمع بفضل هذه المعتقدات ممتلكاً لمجموعة من الانظمة الجديدة التي كونت العامل الاساسي في بناء الحضارة الانسانية. ولقد لعبت الاديان دوراً تربوياً مهماً في حياة الانسان البدائي، وولدت فيه اخلاقا وقيماً جديدة كانت الاساس في اساليب وانماط التفكير الحديثة. التي اعطت الشكل المتطور للحضارة في تلك المرحلة، ودفعت بعجلة التقدم قدما في العصور البدائية. وتلك الحضارة ليست مرتبطة بعرق أوقوم ما. إنما العناصر التي تكونت عليها هذه الحضارة، لعبت دوراً أساسياً في تطور التجمعات البشرية البدائية وفي ازدياد كثافتها. وتعتبر هذه اهم الجوانب الايجابية لمعطيات الحضارة. ولقد اختلفت الثقافات بإختلاف المناطق الآهلة، والظروف الموضوعية المحيطة بالانسان خالق الحضارة. لذلك نرى أقدم تشكيلة في التنظيم الانساني هي الجماعة. وتتشكل القبيلة من عدة جماعات ونتيجة للتطور المتفاوت في الانتاج بين القبائل، خلقت تناقضات ونزاعات، التي ساهمت بدورها في ظهور القادة والدول. لقد تمسك بعض هؤلاء القادة بزمام الحكم، وفرضوا سلطانهم على شعوبهم عن طريق اكساب المشروعية لها، فجعلوها غيبية او الهية. وجاؤوا بالقانون الجديد المنزل من الله والذي لايمكن الخروج عنه. لقد أخذت المجتمعات هذه القوانين على انها من المسلمات التي لا يمكن كسرها وتكيفت بموجبها.

ب ـ اكتساب الاديان البعد الايديولوجي ومكانتها في التحول الاجتماعي.

لمعرفة كيفية اكتساب الاديان البعد الايديولوجي في تطور المجتمع، لا بد من معرفة الفلسفة كونها تمثل افكاراً و آراءاً أي الايديولوجيا. فالفلسفة لم تكن لها يوماً منه بدأت وفيه ظهرت. شأنها شأن العلم، وهذا حال كل الفعاليات البشرية كالفنون و العادات والتقاليد وغيرها. فالفلسفة ليست شكلا لمعرفة الواقع. فهي الى جانب كونها كأي علم اخر شكلا من اشكال المعرفة، تتميز عن العلوم الاخرى بأنها نظرة عن العالم. ولهذا فإن الفلسفة في نشوءها وتطورها تتحد مباشرة بالمصالح المادية للطبقات المختلفة في المجتمع، وتبرز كشكل للايديولوجيا. ومع انقسام المجتمع الى طبقات وتطور الصراع الطبقي فيها، تظهر الحاجة الى نظرية للمصالح المادية للطبقات المتصارعة والفئات الاجتماعية المختلفة. لذلك فالايديولوجيا هي الفكرة التي ظهرت في المجتمع الطبقي لأجل حل المشاكل الطبقية. ولفهم هذه الظاهرة نحتاج الى تقييم العوامل والاسباب التاريخية لذلك.

ليس مهماً لفيلسوف ما ان تكون فلسفته مجدية او معبرة لقوم ما أو لطبقة ما. وليس مهماً ان تكون فلسفته حسب حياة قوم ما. فإذا كانت الافكار الفلسفية تعد نظرة مستقبلية، فأنها تحمل في طياتها توقعات الانسان التي يبنيها بناءً على معطيات حياته المادية، واعتقاداته الخاصة بالنسبة للمستقبل القادم. فلهذا كان كل فيلسوف يأخذ بعين الاعتبار احتمال عدم الفهم (أي فلسفته) في الوقت الذي يطرحه على المجتمع الذي يظهر فيه. حيث كان يتوقع ان تفهم أفكاره ونظراته في المستقبل الذي حدد على اساسه تلك الفكرة التي قام بطرحها. فالفيلسوف كان يعبر عن ارائه الخاصة دون الاهتمام بآراء الناس. اما الايديولوجيا فهي ليست كذلك ولا سيما الايديولوجيات التي ظهرت على اساس ديني. لأن هذه الايديولوجيات كانت ايديولوجيات منزلة، وكانت قد حددت أطرها العامة من قبل قوى مطلقة خارج عن اطار الانسان. وهذه القوى تمثل في«الله». مثلاً: ان الرسل (الانبياء) لم يستطيعوا التعبير عن حقائق العالم بموجب أهوائهم او رغباتهم، بل كانوا مضطرين على ان يقوموا بهذا العمل ضمن اقوامهم فقط في البداية. وكذلك على ان يفهموها ويهزون بها اعماق اقوامهم للتأثير عليهم وتحرير عقولهم الجامدة. لذلك فهم مطالبين (الانبياء) ببناء شخصية جديدة؛ ذي قوة تفكير وروح قوية، لكي يتمكنوا من تجسيد طاقاتهم

واستخدامها في عملهم. اي تحفيظ مكامن الشخصية واثارة الخصائص الايجابية في داخل النفسية الانسانية، لخلق المحيط الذي تتمكن فيه الشخصيات من التعبير والتبديل الذاتي.

وقد اتخذ المجتمع هذا الاطار كحدود قصوى ثابتة له. لذلك فان التنظيم أو الفكر الذي يطرحه سيكون محدوداً بموجب هذا الاطار، ومحلياً اكثر بموجب الاطر التي تم بناءها وتنظيمها على ذلك الاساس. لذا فان معرفة الدين وفهمه هي الذروة أو القمة التي وصل اليها العقل البشري في تلك المرحلة. وفي مرحلة متقدمة من تلك المراحل تم النظر الى الدين نظرة ضيقة. ولكن مازال تأثير تلك الافكار باق على الانسان حتى الان، رغم تقدم العلوم وتقدم الفلسفات العصرية. ان الدين هو عبارة عن عبادة قوى ماوراء الطبيعة، وتهدف الى تخفيف غضب تلك القوى واستحصال عناصر القوى المعنوية منها. عندما يعجز الانسان عن مواجهة المشكلات التي تحيط بهم، ولا يجدون لها حلاً ضمن تراكم التجربة الموجودة في عقولهم، فهم غالباً ما يلجأون الى قوى غيبية للاستعانة بها، كي يطمئنوا انفسهم، ويحصلون منها على الامل والامان التي هي من غاياتهم العظيمة. ويعملون على تنظيم جميع مجالات حياتهم وفقاً لها.

ان التطورات التي حققتها العلوم عبر التاريخ، لم تكن قد وصلت الى المستوى التي تستطيع ان تحافظ على المجتمعات، وتحميها من الكوارث الطبيعية، وخطر الموت، والاعتداءات والغزوات الخارجية. لذلك اختار الناس الدين من اجل الخلاص من القلق والضعف في التفكير، والحصول على الطاقات اللازمة لكي يروا انفسهم اقوياء. فمثلاً الطقوس الدينية والمراسيم التي تطمئن بها النفوس وتشبع الارواح بكل القيم المعنوية، أصبحت بمثابة رابطة متينة تربط بها الاجيال المتلاحقة بعضها ببعض. فمعرفة الدين في اطار ايديولوجي، ليست معرفة المنبع الذي وهب للانسان المعنويات والاندفاع والحماس فحسب، وانما هي معرفة الجوانب الاساسية والمهمة لجوهر الانسان.

يتم تحرر العقل فقط عن طريق المعرفة الحقيقية وادراكها، وتطور العلم الذي يعتبر شكل المعرفة المنظمة للواقع. الذي نشأ وتطور على اساس التطبيق العملي التاريخي والاجتماعي، وبعكس قوانين العالم

الموضوعي وجوانبه. فقد نشأ العلم من حاجات الانتاج ومن التطبيق العملي. ويبدأ بالنمو مع اول تقسيم للمجتمع الى طبقات، مع العبودية التي تزيد زيادة حاسمة في سلطان الانسان على الطبيعة. اي ان الانتاج ونضال الطبقات هي القوى المحركة لتنمية العلم. فعند رؤية هذه الحقيقة وادراكها يتطور العقل، و ياتي بافكار متحررة. وعلى سبيل المثال تكون معرفة الحقيقة في الديانة البوذية هي (انكار الذات) ، اما في الديانة الزردشتية فهي (بالتفيكر الصائب، وبالحديث السليم، وبالعمل الصالح)، ويكون طريق التحرر في المسيحية هو (التسامح والتعامل بالوجه الحسن مع الاخرين)، وفي الاسلام فهو (التوحيد).

تاريخ الايديولوجيات الدينية هو تاريخ التفكير البشري. كذلك هو تاريخ التحولات للحياة البشرية. انه تاريخ التحول الاقتصادي العالمي، والذي بدوره يعتبر البنية التحتية (الاقتصاد) الاساسية للانظمة الاجتماعية، وكونه محرك للتحول والتغيير ضمن الحضارة. لقد اعطى الدين وجها وشكلاً للثقافات والمعنويات والاخلاق والعادات والتقاليد. اذ يمكننا تحليل جميع الثورات الدينية على اساس النظام الاقتصادي، مثلما حددت فلسفة علم التاريخ. ويمكننا من خلالها ان نبين العلاقة بين السبب والمسبب.

ج ـ غنى التطور الثقافي والديني في الشرق الاوسط لدى كل من ـ السومريين ، الاكاديين ، البابليين ، الفراعنة ، الزردشتية،المانوية ، اليهودية ، المسيحية ، الاسلام ـ، واسبابه.

تاريخ ميزوبوتاميا هو تاريخ الشعوب التي استوطنتها، وهي المنطقة التي شهدت تعايش الشعوب وثقافاتها. أي عاشت فيها العديد من الجماعات والعشائر والقبائل والشعوب، واختلطت ببعضها البعض، وشكلت موزاييكاً قل نظيره. تلك الشعوب التي قاومت من اجل استقلالها تجاه كافة الهجمات التي قامت بها موجات الهجرات السامية الى المنطقة،

من المناطق الآكادية ومراكزها في الشمال. هذه الاقوام المختلفة ورغم تناقضاتهم المتواصلة، رسخوا الاسس البدائية لاول حضارة عرفت بشكل موسع على وجه هذه المنطقة في التاريخ القديم.

اثبتت الدراسات والتنقيبات الاركولوجية، مقدار ومستوى ماتوصلت اليه هذه الحضارة من ابداعات واختراعات، والتي ضاهت بعظمتها كل الحضارات على وجه الارض في تلك الفترة. وبالرغم من ان كل الدراسات التي تبحث في علم السومريات لم تكن موفقة في معرفة عرقهم واماكن قدومهم الى هذه المنطقة، ولكن يمكننا ان نشير حسب الابحاث التاريخية بان الثقافة السومرية بناءاً على ماتبقى منها لدى الاشوريين، ان هذه الثقافة كانت متطورة بدرجة كبيرة، بحيث رغب شعراء الاشوريين وعلمائهم في جمع تاريخ هذه الحضارة وكتابته. حيث كتب شعراءهم مجموعة من الحكايات، التي اصبحت فيما بعد اساطير تتعلق باسطورة الخلق البدائية، وهبوب الاعاصير، والطوفان، واغراق الجنة (جنة سومر) بسبب ارتكاب احد ملوكها لذنب كبير. هذا وقد اثبت البابليون والعبرانيون هذه الملحمة وتبنوها، بل ونسبوها اليهم فيما بعد. وكما اقتبست المسيحية والاسلامية قسماً من المعتقدات من تلك الثقافة السومرية العريقة.

يسود حياة السومريين نمط معين من العائلة ومن العلاقات العائلية، وقد عرفنا على سبيل المثال: ان المزرعة او الحقل كانت تدار من قبل الام، في حال عدم تواجد الاب حتى وان تواجد الابن الاكبر. وكان للمرأة الحق في ممارسة التجارة، مستقلة عن زوجها. كذلك كان لها الحق في امتلاك العبيد او اعتاقهم. حتى ان المرأة في بعض الاحيان تصل الى مرتبة الملكة. ومن اعظم آثار السومريين التي بقيت شاهدة لهم حتى الان هي آثار(الخط ـ والكتابة). وكان هذا الفن متطوراً في عهدهم، يستطيعون بواسطته ان يعبروا وبشكل مكثف عن التجارة والشعر والدين. وبحسب التحليلات التاريخية العلمية، يثبت بانهم اول من بنوا نظام السلطة.

السومريين والاكاديين:

ليس في وسعنا رغم ما قام به العلماء من البحوث ان نعرف الى اي سلالة من السلالات البشرية ينتمي هؤلاء السومريين، او اي طريق

سلكوه حتى دخلوا بلاد سومر. لما تقدم العهد بمدنيتهم حوالي ٢٣٠٠ق م حاول الشعراء والعلماء السومريين ان يستعيدوا تاريخ بلادهم القديم، فكتبوا قصصاً عن بداية التكوين وعن جنة بدائية، وعن طوفان مروع غمر هذه الجنة وضربها عقاباً لاهلها على ذنب ارتكبه احد ملوكهم الاقدميين. وتناقل البابليون والعبرانيون هذه الحكاية، واصبحت بعدئذ جزء من العقيدة المسيحية. ولقد نشر الملك " اور ـ انجور" في البلاد شرائعه باسم الاله الاعظم (شمش). وذلك ان السلطة سرعان مارأت في الالتجاء الى هذا الدين فوائد سياسية. لهذا تضاعفت عددها حتى اصبح لكل مدينة اله، ولكل ولاية، لكل نوع من النشاط البشري إله. وكانت عبادة الشمس قد تأخرت بها العهد حين نشأت بلاد سومر، وكان شكل عبادة الشمس (نور الاله) الذي كان يقضي الليل في الاعماق الشمالية، حتى يفتح له الفجر ابواب السماء كاللهب ويضرب بعربته في اعماق القبة الزرقاء. ولم تكن الشمس الا عجلة مركبته النارية.

شيدت في مدينة "تبور" السومرية المعابد العظيمة للاله"انليل" سيد الهواء وقرينته"ننليل" سيدة الهواء. اما في اوروك فقد عبدت اله انثى عذراء عرفت لدى الاكاديين باسم "ا ستير"، والتي هي افروديت ودمترا...

اما مدينتي كيش ولاكاش (لكش)، فقد عبدتا اماً لهما هي الالهة " ننكر ساج " التي احزنتها شقاء البشر، فأخذت تشفع لهم عند الالهة الذين كانوا اشد منها قوة. وكان " تنجرسو" اله الري ورب الفضيانات، و " أبو " أو " تموز" اله الزرع، و " السن " اله القمر، وكان يمثل على صورة انسان يعلو رأسه هلال. وكان الهواء كله حسب زعمهم مليء بالارواح، منهم ملائكة خيّرون لكل سومري منهم ملك يحميه. ومنها أرواح خبيثة أو شياطين تعمل جاهدةً لطرد روح الخير الواقي، لكي تتقمص روح وجسم الادمي. ولقد اصبح الكهنة اكثر الناس غنى واعظمهم قوة في المدن السومرية، نتيجة للقرابين التي كانت تقدم للالهة. حتى كانوا أهم الحكام..

لقد آمن السومريين بالحياة بعد الموت، وذلك لانهم كانوا يدفنون الطعام والاواني والملابس في القبور مع موتاهم. لكنهم كانوا يصورون الدارالاخرة كما صورها اليونان من بعدهم؛ عالماً مظلماً تسكنه الاطياف

التعسة ويهوي اليه الموتى، اياً كان شأنهم من غير تمييز بينهم. ولم تكن فكرة الجنة والنار قد استقرت بعد في عقول السومريين....

اما النصوص السومرية الاولى قد اشارت الى اصول الالهة وكيفية ولادتهم. حيث روت احد النصوص عن ولادة الاله: «ان زوج من الالهة البدائيين هما " خا ـ راب " والارض، الذي ينجب من اقترانهما البحر والذي هو الاله الاول لهم. علماً بان كلمة " خا ـ راب " تعني باللغة الاكادية (المعزق) المحراث. أي بضربات من المحراث على الارض ولد البحر، ومن اتحادهما مرة ثانية ولد لهما ابنا وهو"اماكاندو" اله الحيوانات البرية، الذي يقتل اباه " خا ـ راب" ويتزوج من امه واخته البحر. والتي تنجب له " لاخار" الاله الخاص للماشية الصغيرة». يدل هذا النص من الاسطورة على ان الام البدائية لدى السومريين هي الارض " مامي " والاب البدائي " خا ـ راب " المحراث. هكذا كان السومريون يتصورون تكون الارض والبحار، حيث تمت بضربات من المحراث في الارض لينشق منها البحر. ثم يتابع النص بان " خا ـ راب " و"اماكاندو" بنوا اول مدنية التي هي مدينة دونو(ذات المعقلين) والتي اسس فيها " خا ـ راب " سلطة دونو الاميرية، وتولى بنفسه هذه السلطة. اما قتل الابن لابيه واتخاذ اخته البحر قرينة له حيث ينجب له" لاخار"، الذي بدوره يقتل اباه ويتخذ امه البحر قرينة له، والتي بدورها تصبح الارض امها ليستولى لاخار على السلطة الاميرية. أي ان حياة الانسان البدائي بدأت بالرعي والترحال، نتيجة تناسل الاله لاخار في الارض. وبطبيعة الحال فان ابناء الاله الراعي للماشية هم من الرعاة... أي ان المجتمع السومري عندما صور آلهته واصولها، انسب نفسه الى الالهة الراعية، باعتباره شعب من الرعاة الرحل. وعند استيطان السومريين وادي الرافدين، ونتيجة لفيضانات دجلة والفرات وبتطور معارفهم العلمية، اتجهوا الى الزراعة وبدأوا بتشكيل المدن. لقد كان اساس ثقافة السومريين هي تربة الارض، التي يخصبها فيضان النهرين العظيمين. واستطاعوا ان يمدوا ماءه في قنوات للري تخترق البلاد طولاً وعرضاً. وكان هذا الانجاز من اقدم واعظم انجازات الحضارة السومرية. حيث يرجع تاريخه الى حوالي ٤٠٠٠ق.م. وما من شك في انه الاساس الذي قامت عليه زراعتهم. فقد زرعوا الحقول التي عنوا بها وزرعها بمختلف المحصولات من الذرة

والشعير والبلح والخضر الكثيرة. وكذلك ظهر المحراث الذي يجره الثيران.

اما الآكاديين فهم شعب اخر من الجنس السامي، انشأوا مملكة بزعامة سرجون الاول، الذي اتخذ حكمه في مدينة آكاد على مسيرة ٢٠٠ ميل من المدن السومرية من الناحية الشمالية الغربية. ولم يكن سرجون هذا من ابناء الملوك فلم يعرف له التاريخ اباً ولم تكن والدته الا احدى عاهرات المعبد، حيث اسبغت عليه الاساطير السومرية سيرة شبيهة بسيرة موسى حيث يقول« وحملتبي امي الوضيعة الشأن، واخرجتني الى العالم سراً، ووضعتني في قارب من الاسل (كالسلة) واغلقت علي الباب بالقار». وانجاه احد الاشخاص واصبح فيما بعد ساقي الملك وقربه اليه وزاد من نفوذه وسلطانه، ثم اخرج على سيده و خلعه وجلس على العرش في " آكاد"، وسمى نفسه بالملك صاحب السلطان العالمي. وان لم يكن يحكم الا قسماً صغيراً من ارض الجزيزة. فقام بالكثير من الغزوات واهلك من الخلق العديد العديد وكان من بين ضحاياه الملك " لوكان ـ زاكيسي " الذي نهب لكش وانتهك حرمة اهلها وآلهتها. واسس اول امبراطورية عرفها التاريخ، وحكم ٥٥ سنة. وتجمعت حوله الاساطير فهيأت عقول الاجيال اللاحقة لان تجعل منه الهاً. وانتهى حكمه ونار الثورة مشتعلة في جميع انحاء مملكته. خلفه ثلاثة من ابناءه وكان اخرهم " نارام سين".

اما الديانة الاكادية فلا تختلف كثيراً عن الديانة السومرية، سوى اختلاف اسماء الالهة لاختلاف اللغة الاكادية عن اللغة السومرية.

البابليين:

كانت بابل مزيجاً من الشعبين الاكادي والسومري. ونتيجة امتزاج هذين القومين كانت الغلبة في السلالة الجديدة للاصل السامي. وتظهر في بداية تاريخ هذه الحضارة شخصية قوية هي شخصية " حمورابي" ٢١٢٣ــ ٢٠٨١ ق.م، الفاتح المشرع الذي دام حكمه ثلاثة واربعين سنة. ان الشرائع العادية التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي، والتي اقام عليها في الارض دعائم ثابتة، وحكومة صالحة، كانت لشعبه ولكثير من الشعوب من بعده قبساً يهتدون به في دياجير الظلمات. لقد كان البابليون ساميين في مظهرهم؛ سود الشعر، سمر البشرة، رجالهم ملتحون

واحياناً يضعون على رؤوسهم شعراً مستعاراً ، وكان الرجال والنساء يطلون شعر رأسهم على حد سواء.

كان على الحدود الشرقية لمدينة بابل الجديدة قبيلة قوية من سكان الجبال هي قبيلة الكاشيين. لم يمض على موت حمورابي الا ثماني سنوات حتى اجتاحت قبيلة الكاشيين دولة بابل، واستقروا فيها فاتحين، وحاكمين. وظلت بلاد بابل بعد هذا الغزو مسرحاً للاضطراب العنصري والفوضى السياسية اللذين أوقفا التقدم فيها. وخرج الكاشيون من ارض بابل بعد ان حكموها ما يقارب ستة قرون، اضطربت فيها احوال البلاد. ودام هذا بعد خروجهم لمدة اربعمائة عام. حكم بابل في اثناءها حكام خاملون، ودام عهدهم حتى قامت الامبراطورية الاشورية فبسطت سيادتها على بابل واخضعتها لنينوى. ولما سارت بابل على حكم الاشوريين، دمرها سنحاريب تدميراً كاملاً. لكن أسرحدون اعاد اليها رخاءها وثقافتها. ولما قامت دولة الميديين وضعف الاشوريين، استعان نبولا بلاصر بالدولة الناشئة على تحرير بلاد بابل من حكم الاشوريين، واقام فيها اسرة حاكمة مستقلة. وبعد وفاته خلفه ابنه نبوخذ نصر الثاني في الحكم وجعل هذا بابل عاصمة الشرق بلا منازع، وأكبر عواصم العالم القديمة واعظمها ابهة وفخامة.

اما الديانة في بابل، فلم تكن سلطة الملك يقيدها القانون وحده، ولا الاعيان وحدهم بل كان يقررها الكهنة. ذلك لان الملك لم يكن من وجهة النظر القانونية الا وكيلاً للالهة. فمن اجل هذا كانت الضرائب تفرض باسم الالهة. ولم يكن الملك يعد ملكاً الا اذا وافق عليه الكهنة. وكان الملك يلبس في هذه الاحتفالات الدينية ثوب الكهنة، فهذا دليل على اتحاد الدين بالدولة. ولقد ظلت بلاد بابل في واقع الامر دولة دينية خاضعة لامر الكهنة على الدوام الى يوم تتويج نبوخذ نصر ملكاً لها. اما عن الهة البابليين فقد كانت كثيرة العدد، وقد احصي عدد الالهة رسمياً في القرن التاسع قبل الميلاد كانت حوالي ٦٥ الف وخمس الهة (٦٥٠٠٥) الهة. ذلك لان لكل مدينة اله يحميها، وكان للمقاطعات والقرى الهتها الصغرى التي تعبدها وتخلص لها، وان كانت تخضع رسمياً للاله الاعظم. فقد اقيمت في لارسا هياكل كثيرة " شمش " و "عشتار" في اوروك، ونينار في اور، تلك الالهة السومرية التي

لم ينقضي عهدها بانتهاء السومريين. واقدم الالهة كلهم اله السماء ومافيها (آنو) السماء الثابتة، (الشمش) وتعني الشمس، (انينا) ويعني قمر الليل أو بعل الارض التي يعود كل البابليين الى صدرها بعد مماتهم. ولسنا نجد عند البابليين شواهد على التوحيد كالتي ظهرت في عهد " اخناتون " وعهد اشعيا الثاني. لقد قلت عدد الالهة الصغرى بعد ان فسرت على انها صور وصفات للاله الاعظم. وعلى هذا النحو اصبح مردوك اله بابل. حيث كان في بادئ الامر من الهة الشمس (شمش) كبير الالهة البابلية، ومن ثم لقب بمردوك واليه والى عشتار كان البابليون يوجهون صلواتهم.

اما اسطورة نشوء البابلية فتقول: « لقد كان في اول الامر عمّاء في الوقت الذي لم يكن فيه شيء عال يسمى السماء، ولم يكن هناك شيء وطيئ يسمى بالارض، جاء "آبو" المحيط، وكان اب الاشياء في بادئ الامر و"تيمات" العماء التي ولدتها كلها وخلط ماءها معاً وبدأت الاشياء تنمو رويداً رويداً وتتخذ لها اشكالاً. ولكن تيمات الالهة المجهولة شرعت بيد جميع الالهة لتجعل لنفسها العماء صاحبة المقام الاعلى. واعقبت هذه ثورة عنيفة اضطرب منها كل نظام. ثم جاء اله اخر وهو مردوك وقتل تيمات بان دفع داخل فمها ريح عاصفة حين فتحته لتبتلعه ثم طعنها في بطنها برمحه فانفجرت آلهة العماء. وتتابع الاسطورة بان مردوك حين عاد اليه هدوءه قسم تيمات الميتة الى قسمين مستطيلين كما يقسم الانسان السمكة الى شطرين ليجففها، ورفع احد النصفين الى الاعلى فكانت السماء، وبسط النصف الاخر تحت قدميه فكانت الارض. بعد ان وضع مردوك السماء والارض في مكانيهما، شرع يعجن الارض بدماء الالهة ليصنع الناس لخدمتها ». وتتفق الاساطير البابلية على ان تكون الانسان قد تم من الطين. وهي لا تصف الانسان بانه كان يعيش في البداية في الجنة، وانما كان يعيش حياة حيوانية.

ان عقيدة الخلود في الديانة البابلية لم يكن فيها ما يبهج البابلي. ذلك لان دينه كان ديناً ارضياً عملياً، فاذا صلى يطلب في صلاته ان تتسع ارضه ولم يكن يطلب ثواباً من الجنة، ولم يكن يثق بآلهته عندما كان يوارى في القبر. على الرغم من ان احد النصوص تقول: انما مردوك يحي الموتى. لكن فكرة البابليين عن الحياة الاخرة كانت شبيهة بفكرة

اليونانيين: « الموتى يذهبون الى مكان مظلم في جوف الارض، ولا يرى الضوء احد منهم ثانية. اما الجنة فلقد كانت موجودة في عقائدهم ولكنها من نصيب الالهة فقط». اما فكرة الخطيئة عند البابليين كالمرض مثلاً تنشأ من سيطرة الشيطان أو روح شريرة على الجسم . وكانت الصلاة عندهم تمثل تطهير الجسم من الارواح الشريرة والعفاريت.

الفراعنة:

مامن احد يعرف من اين جاء المصريون القدامى، ويميل بعض العلماء والباحثين الى الرأي القائل بانهم من النوبيين والاحباش اللوبيين من جهة، ومن المهاجرين الساميين والارمن من جهة اخرى. فالارض حتى في هذا العهد السحيق لم تكن تسكن فيه سلالات نقية؛ ويرجع الى ان الغزاة أو المهاجرين الذين وفدوا من غرب آسيا قد جاؤوا بثقافة ارقى من ثقافة اهل البلاد، وان تزاوجهم مع هؤلاء قد انجب سلالة هجينة و كانت بذلك مطلع حضارة جديدة. كما هو شأن جميع الحضارات، واخذت هذه السلالات تمتزج امتزاجاً بسيطاً حتى يتشكل من امتزاجهما فيما بين عام (٤٠٠٠- ٣٠٠٠) ق.م شعب واحد هو الشعب الذي اوجد مصر القديمة.

قبل حلول عام ٤٠٠٠ ق.م كانت الاقوام التي تسكن ضفاف النيل قد انشؤوا لهم سلطة. فقد انقسم هؤلاء المقيمون اقساماً ينتسب سكان كل قسم منها الى اصل واحد، وكان لهم شعار واحد، ويخضعون لرئيس واحد ويعبدون اله واحد، بمراسيم وطقوس واحدة. وظل لحكامها نوع من السلطات يختلف قوةً وضعفاً واستقلالاً باختلاف قوة الملك الاعظم وضعفه. لقد اخذت هذه الاقسام تنظم نفسها مدفوعة بحاجات التجارة النامية حتى تكونت منها مملكتان، احداهما في الجنوب، والاخرى في الشمال. ولعل هذا التقسيم كان صورة من النزاع القائم بين الافريقيين اهل الجنوب والمهاجرين الاشوريين اهل الشمال. وقد سوى هذا النزاع الذي زاد من اثر الاختلافات الجغرافية والعنصرية تسوية مؤقتة حين ضم مينا (مينيس) القطرين تحت سلطانه الواحد. واعلن في البلاد قانوناً واحداً قال بانه اوحي اليه من قبل الاله "تحوت" واقام اولى الاسر المالكة التاريخية، وشاد عاصمة جديدة لمملكته في منف (منفيس) .

تعتبر الاهرامات من اهم الاثار الباقية حتى الان و التي تطورت عن القبور البدائية. فقد كان يعتقد الملك كما كان يعتقد الاغلبية من شعبه، ان في كل جسم حي قرينة (كا) لا تموت حتى اذا لفظ الانسان انفاسه الاخيرة. ان هذه القرينة تضمن بقاءه بقاءً كاملاً، ويحتفظ بالجسم آمناً من الجوع والتمزق. وتعتبر هذه الاهرامات وسيلة الانسان للبقاء ومقاومة الموت لعلوه وضخامته، وشكله، وموقعه. لذا فالقرينة في رأي المصريين القدماء صورة مصغرة للجسم نفسه. ونستنتج من هذا بدون شك بان المصريين القدماء كانوا يؤمنون بالحياة الاخرة ويعملون من اجلها.

اما الديانة المصرية فأنها ترى الدين المصري فوق كل شيء. حيث يقول المصري: ان بداية التكوين هي السماء والنيل اكبر ارباب الى اخر ايامه. ولم تكن الاجرام السماوية في نظره سوى صور حية لارواح عظيمة، لالهة ذوي ارادات. وكانت السماء قبة تقف في فضاءها الواسع بقرة عظيمة هي الالهة " حتمور" والارض من تحت اقدامها وبطنها يكسوه جمال عشرات الالاف من النجوم.

تقول اسطورة الخلق البدائية في مصر بان السماء هو الاله (سيبو) النائم في لطف على الارض التي هي الالهه (نويت) ومن تزاوج هذين الالهين ولدت كل الاشياء.هذا و كان هناك الكثير من الاساطير المختلفة التي يعود السبب في اختلافها الى اختلاف الاقاليم المصرية.

يحدث في بعض الاحيان ان الهاً من هذه الالهة ياكل القمر، لكن ذلك لايدوم طويلاً لان دعاء الناس، وغضب الالهة لايلبسان ان يضطرا الخنزير الى ترك اكل القمر. وهكذا كان المصريون يفسرون خسوف القمر. وهذا يذكرنا بقصة موت اودينس وتموز. لقد كان القمر الهاً، ولعله كان اقدم الالهة في مصر، ولكن الشمس في الدين الرسمي كانت من اعظم الالهة، وتعبد في بعض الاحيان، على أنها الاله " رع " الاب اللامع الذي لقح الام الارض بشجاعة. ثم تطورت هذه الديانة فاصبحت الشمس هي الاله (حورس) مصوراً في صورة صقر. لقد كان "رع" او الشمس هوالخالق على الدوام. فلما اشرقت لاول مرة ورأت الارض جرداء وقحطة، ضمتها باشعتها فبعثت فيها النشاط، واخرجت من عيونها كل الكائنات الحية من نبات، وحيوان، وانسان مختلطاً بعضها ببعض. ولما

كان اول الخلق من الرجال والنساء من ابناء "رع الأدنين" فقد كانوا مكملين وسعداء. لكن ابناءهم انحرفوا شيئاً فشيئاً الى طريق الضلال. فخسروا ما كانوا عليه من السعادة والكمال. غضب "رع" من اجل ذلك فاهلك عدداً كبيراً من الجنس البشري.

ان الروح الدينية عند المصريين غزيرة وخصبة، وبلغ من خصوبتها حتى جعل المصريون يعبدون كل مصادر الحياة وصورها. وكانت الالهة من الحيوان اكثر انتشاراً عند المصريين من الالهة النبات حتى عندما تحولت الالهة لديهم الى الصورة الادمية ظلت محتفظة بصورتها الحيوانية المزدوجة. فكان "امون" يمثل بوزة او كبش. اما "رع" فيرمز له بصرصر او عجل. و"ازوريس" بـ عجل او كبش، والاله "سبك" بتمساح، و"حورس" بصقر و"حتحور" ببقرة.

لقد كان الكهنة في مصر دعامة العرش، كما كانوا الشرطة السرية القوامة على النظام الاجتماعي. وتطّلب على هذا الدين الكثير من التعقيد فقامت عليه طبقة بارعة في فنون السحر والطقوس الدينية، لا يمكن الاستغناء عنها للوصول الى الالهة.

الزردشتية:

تقول الروايات بان زردشت بحد ذاته لم يكن شخصية واحدة، بل ثلاث شخصيات على الارجح انتشرت على ايديهم الديانة الزردشتية وهم:

١ـ مهاباد (٣٠٠٠) ق. م.

٢ـ هوشنك.

٣ــ زردشت (٦٦٠) ق. م وهو الذي قام بتنظيم الديانة الزردشتية ونشرها بين الميديين والبارسيين والاخمينيين.

عمل زردشت الثالث على تنظيم ونشر الديانة الزردشتية، والتي كانت موجودة قبله منذ زمن زردشت الاول (٣٠٠٠) ق. م. ولمعرفة زردشت يجب علينا دراسة البيئة التي اقام زردشت حركته ونهضته فيها:

١ــ وجود الاعتقادات الخرافية مثل السحر والكهنة، نتيجة الخوف وعدم الوعي.

٢ــ استيلاء الكاهنات (مغان) على حياة الانسان الروحية والمادية.

٣ــ مسار الحياة الانسانية يقتضي التطور والتقدم بصورة تلائم حياتها.

في هذه البيئة التي كان يعيش فيها القوم الاري ظهر زردشت واعلن ديناً جديداً، لايقبل السحر والكهنة، ويرفض استيلاء الكاهنات (مغان)، ويريد الاصلاح في النظام الاجتماعي والاقتصادي والروحي. وكما اثبتت الدراسات بانه اول من اصلح في الاديان البدائية، وجاء بمذهب يرتكز فيه على الفلاحة والزراعة. وبهذا خلق حياة جديدة لقومه ومجتمعه. حيث نستطيع القول بان الديانة الزردشتية بنيت على الزراعة فيقول: « من حفر بئراً يدخل الجنة ». وفي الكثير من اقواله ورد استحسان الزرع والشجر والنباتات والخضروات. وحل عبادة الاله الواحد محل عبادة الاصنام والحيوانات والاجرام السماوية. بهذا الطريق سد طرق استغلال الكاهنات لحياة المجتمع الروحية والمادية. وفتح دوراً جديداً من الحياة التي تناسب وتلائم مقتضيات قومه من الناحية الاقتصادية والاجتماعية. وانقذ قومه من عبودية ذوي السلطة والمذاهب الخرافية. ومن اهم الاسباب التي ادت الى ظهور ديانته هي حاجة القبائل الرحل والمشتغلة بالرعي للاستقرار والثبات. لذا فهي ديانة الارتباط بالارض.

فالديانة الزردشتية على خلاف ديانة بوذا التي تنظر الى الدنيا والطبيعة والانسان نظرة التشاؤم. ويرى نظام العلاقات الاجتماعية ـ علاقة الزواج ـ سبباً للانحطاط والانهيار. لكن الديانة الزردشتية تنظر الى الدنيا والطبيعة والانسان نظرة تفاؤول وبرؤية علمية واقعية. يحرض على العمل والانتاج الزراعي ويجعل لهما اجراً ومثوىً معنوي، ويحسبهما

افضل العبادات، ويمدح الحياة والتعايش مع الاخرين. كما قلنا ان اساس اخلاقيات هذه الديانة بنيت على العلاقات الزراعية لتطوير وتقدم الحياة البشرية. وعلى هذا الاساس نستطيع القول بان هذه الديانة هي ديانة موضوعية ترسم فلسفة ايجابية لتكامل التاريخ.

في اعتقاد زردشت ينقسم التاريخ الى ثلاث مراحل ولكل مرحلة اربعة الاف سنة. في نهاية كل مرحلة يدور التاريخ ويظهر(سوشيانت) اي منقذ البشرية. وفي هذا الصراع التاريخي ينتصر الحق المطلق وتطهر الانسانية من الادران والاقذار التي اصابتها طيلة القرون. وعلى هذا الاساس انها ترتكز ارتكازاً هاماً على التعقل والتفكير حول الطبيعة والانسان والحياة ومراحل تكاملها، ويهتم بانشاء مجتمع ذو سعادة ورخاء، بعيداً عن الطبقات التي خلقتها الكاهنات والخرافات في ذلك الزمن. ويؤمن زردشت بالاله الواحد أي ان ديانته توحيدية. وهذا الاله هو " اهورا مازدا " ويجعل له صفات خاصة مثلما في باقي الديانات التوحيدية، خاصة الاسلام. وانه يعتقد بانه الله ذو صفات ازلية وابدية. وكما يعتقد ان الانسان امام قوتي الخير والشر. وهو دائماً في صراع ويرى وجود هذين القوتين ضروريتين لتكامل الحياة الانسانية المادية والمعنوية.

ذهب البعض من العلماء الى ان زردشت مشرك وديانته بنيت على الشرك، لانه يعتقد باله الخير واله الشر. وفي حقيقة هذه الديانة يعتقد بان الله خالق الشر والخير، لا ان الشر والخير هما الهان ذات القوة والتاثير في الحياة. انما الاله واحد وخلق هذين القوتين في العالم ضرورة للحياة الانسانية. كما جاء في الاسلام ايضاً على لسان سيدنا محمد (ص) بهذا المفهوم الشبيه بالانسان والشيطان، ويقول القران الكريم« قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها»، وايضا « فالهمها فجورها وتقواها»وهذا يعني ان الانسان دائماً في صراع مع قوتي الخير والشر. هكذا يرى زردشت ان الانسان امام هذين القوتين ويذهب انه مع العمل والقيام بتربية نفسه وتزكيتها من الاوثان والشر. وخير دليل على ذلك قوله «التفكير الصائب ، القول الحسن، والعمل الصالح » ويقابلها في الديانة الاسلامية حديث النبي عليه السلام « الايمان، وبالقلب الاذعان والتصديق باللسان والعمل

بالاركان » القلب مكان التفكير واللسان مكان القول و العمل بالاركان ومكان العمل الاحسن.

وهناك من يعتقد خطأ بان زردشت يؤمن بعبادة النار وان اهورامازدا هو النار، انما كانت نظرته الى النار كونها مظهر من مظاهر الله. كما يقول في القرآن « الله نور السموات والارض » فالمكان الذي يشعل فيه النار هو المسجد والكنيسة لعبادة الاله الواحد، ويسمى عند الزردشتيين « آتشكه»ATES GE . وتقسم الحياة حسب العقيدة الزردشتية الى اربعة مراحل، ذكرت في اسطورة التكوين الزردشتية:

١ــ ان الخير والشر كانا اول الخلق حيث ولدا من (العماء البدائي) حيث لاشيء ولا مكان ولا زمان.

٢ ـ انضوت الدنيا تحت اطار الظلمة التي نتجت من انتصار الشر على العناصر الخيرة في الطبيعة.

٣ ـ قدوم زردشت وتفريقه بين الخير والشر والظلمة والنور.

٤ ـ انتهاء الظلمة، وحكم الخير على الارض وانتشار الضوء.

وكتاب الأفستا المكتوب باللغة الكردية القديمة، هو الكتاب المقدس للميديين والفرس وبعض الشعوب الاخرى التي اعتنقوه. ومن اهم مميزاته:

ـ تخاطب كل الناس وفي شتى انحاء الارض؛ أي ذو صبغة انسانية لا تهدف الى السلطة، وتقوم في جوهرها على الصراع بين الخير والشر كونهما في صراع دائم ومستمر. وتحرم اراقة الدماء وتحافظ على الادوات الزراعية وتحرم تقديم القرابين من الحيوانات العاملة في الزراعة وما شابهها. اما الجانب الذي يمثل المساوئ والشر في الديانة الزردشتية الذي يطلق عليه باسم « اهريمن » والذي يسعى دائماً الى التفرقة بين الشعوب لتراق الدماء؛ وكذلك بافساد ادوات الزراعة ليجعل الانسان يعيش على النهب والسلب والسطو والاحتكار. حيث يقول زردشت: « ان قتال العشائر والقبائل هو انتصار اهريمن ».

اما فلسفة التكوين الزردشتية فتعتمد على اربعة عناصر مقدسة هي:

١ ـ **التراب:** قدس لاحتياج الانسان، ولارتباطه بالارض وترك البداوة التي يمثلها اهريمن.

٢ ـ **الماء**: وهو العنصر المساعد للارض من اجل الانتاج وهو اساس البركة والزيادة والسعادة.

٣ ـ **النار:** وهو وجه النور الذي يساعد على الصفاء والطهارة من الخطايا، اضافة الى كونها وسيلة الاحتماء من البرد واستمرار الصحة في الانسان وتولد في الناس، الوحدة والحرية والاستقلال. والنار الزدرشتية كانت على ثلاثة اشكال:

أ ـ النار التي توضع في المعابد لتطهير النفس، وتبقى هذه النار مشتعلة دائماً وانطفاءها يعني العبودية والموت.

ب ـ نار المطابخ ـ لطهي الاطعمة وغيرها.

ج ـ نار الاعياد التي كانت عنصراً اساسياً في جمع الشعب وتنظيمه في الحفلات والاعياد الدينية.

٤ ـ **الهواء:** وهو الذي يقوم بتنظيف النفس الحية.

وكان للنبات مكانة خاصة للعبادة في هذه الديانة، لانها كانت العنصر الاساسي في بقاء الاحياء على الارض. لقد كانت الديانة الزردشتية عبارة عن مزج من عدة اديان وافكار دينية سابقة اضافة الى الابداع لزردشت الذي لا يمكن انكاره. ولقد قسم الانسان في هذه الديانة الى ثلاثة اقسام:

١ ـ الجسم الادمي الذي يتكون من التراب.

٢ ـ العقل الذي يفرق بين الخير والشر ويتكون من اختلاف الظلمة والنور.

٣ ـ الروح وهي من النور والنظافة والخير.

لمعرفة كيفية انحطاط الديانة الزردشيتة والخلافات التي نشأت بعدها لابد من التطرق الى التاريخ.

ينقسم القوم الآري الى ثلاثة اقوام رئيسية، قسم في شرق ايران (منطقة خراسان) وسموا بالبارتيين، وقسم في شمال غربي ايران (منطقة اذربيجان وكردستان) هم قوم ميديا، وقسم اخر سكن في جنوب ايران ومركزها واشتهروا بالبارس أو الفرس. كما نعلم ان الميديين هم اول من اسسوا السلطة والنظام الملكي، وبعدهم جاء كورش البارثي و اسس الامبراطورية الاخمينية. وكانت امه ميدية، وبذلك نقلت السلطة من الميديين الى الاخمينيين واصبحت مركز الحكومة فارس بعد ان كانت همذان (اكباتان). ومن ثم هزم الفرس اي الاسرة الاخمينية اثناءهجوم اسكندر المكدوني عليهم، وخرجت السلطة من ايديهم، وبذلك اقام اسكندر في ايران في تلك الحقبة سلطته وحكمه لمدة من الزمن. ولكن بعد مدة من حكم اليونان نهض القوم البارثي بحرب دامية ضدهم، وبذلك انسحب اليونانيون من ايران وعاد الحكم الى ابناء القوم الآري مرة اخرى، وهذا القوم كانوا "الاشكانيون". لم تكن حكومة الاشكانيين ميدية ولا فارسية، بل كما اسلفنا كانت من شرقي ايران. ويرون ان الديانة الزردشتية هي ديانة الفرس والميديين. ولهذا عند وصولهم الى الحكم لم يعتنقوا هذه الديانة ولم يهتموا بها وهذا ما ادى الى اشمئزاز الزردشتيين من هذا الحكم، فبدأ العلماء الزردشتيون الذين كان لهم مقاماً ومكانة في عهد الاخمينيين، تجاه الاشكانيين بالاجتماع وتنظيم الشعب ضدهم. وناضلوا باسم الدين في كل المناطق، وكان مركز هذا النضال مدينة بارس، ومركز حكومة الاخمينيين المتمسكة بالديانة الزردشتية.

توسعت مدى حركة العلماء الزردشتيين وجمعوا جمعاً غفيراً وحملوا حملات شديدة على الاشكانيين بجرم انهم كافرون، ولا دينيين.

وانهم احتلوا ارضنا وسحقوا ديننا. وبعد مدة انهارت واضمحلت حكومة الاشكانيين وظهرت مكانها السلطة الساسانية التي تأسست بيد العلماء الزردشتيين وتمت رعايتهم. وبدأت هذه الامبراطورية حكمها على الشعوب الايرانية. وبهذه الصورة اسس العلماء الزردشتيين حكومة وطنية ومذهبية وكل الاعمال بيدها، وتصرفوا في كل شيء، وحتى يومنا هذا نرى تأثير هذه الفكرة (اي الدينية)، على الحكومات الايرانية واحدة تلو الاخرى. وبهذه الصورة انحرفت ديانة زردشت وذهب صفاءها ونقاءها وجوهرها الانساني، لانها دخلت في خدمة السلطة الساسانية وتم استغلالها من قبل هذه السلطة الاقطاعية، بفرض الضرائب تحت اسم الدين مما ادى الى ابتعاد العامة عنها. وظهور الفساد والرجعية والخلافات المذهبية والقومية وهذا كان السبب الرئيسي لانتفاضة مزدك امام النظام الاقطاعي الموجود في تلك الحقبة من الزمان التي دعت الى الاشتراكية في كل شيء. هكذا ساعد الاباطرة الساسانيون لاستمرار حكمهم في كل الاحوال العلماء الزردشتيين، مما ادى الى ان تنطبع هذه الديانة بالطابع السياسي.

لقد انتصرت هذه الديانة لكن هذا الانتصار لم يكن جوهرياً، ولم يكن في خدمة المصالح الانسانية وحاجاته الاساسية. لهذا اصبح ديناً متحجراً خارج عن المبادئ التي جاء بها زردشت، وفتح المجال امام ظهور اديان اخرى كالمزدكية والمانوية وفي النهاية الاسلام. ويعود انهيار الديانة الزردشتية بسهولة وحل الاديان الاخرى مكانها، الى ظلم وجور الساسانيين باسمها، وبمساندة علماءها المنحرفين على انفسهم وعلى حياتهم وعلاقاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

المانوية:

وتنسب هذه الديانة الى ماني الذي ولد في بلاد بابل من ام اشكانية واب غنوصي في ١٤ نيسان ٢١٦ م. وتعتبر هذه الديانة خليطاً من التأثيرات الزردشتية والمسيحية والبوذية. وفيها تمتزج الأديان السامية وأديان وادي الرافدين بشكل لا يمكن الفصل بينها. ونشأ ماني على مذهب المغتسلة (الماندرية)، ولكنه تعمق بعد ذلك في دراسة اديان زمانه الزردشتية والمسيحية والمذاهب الجنستيكية وخاصة مذهبي ابن ديصان

ومرقيون، فترك مذهب المغتسلة. وفي الحقيقة فإن المانوية هي مبادئ اصلاح اجتماعية اكثر من كونها ديانة . وقد نتجت بالدرجة الاولى من معاناة ماني الذاتية ونظرته الثاقبة للمجتمع. ومن محاولاته لمعرفة احتياجاته وتقديم الحلول المناسبة لها. وقد كان للدعوة المانوية لون خاص في كل بيئة .حيث اراد ماني ان ينشر ديناً عالمياً، وقد طابق بين مذهبه، وبين الآراء والمصطلحات الدينية عند مختلف الامم بمهارة.

يمكننا اضافة تأثيرات الفلسفة اليونانية، التي بدأت تتسع وتنتشر في المنطقة في تلك الفترة الى التأثيرات العامة في الفلسفة المانوية. لقد وجد ماني نفسه ممزقا في مجتمع مليء بالتناقضات الدينية، التي غالباً ما كانت تؤدي الى حروب داخلية وخارجية . وفي موحاولة من ماني لانهاء اساس الصراع، حاول الجمع بين الاديان في شكل جديد. فقد ارجعت المانوية جميع الآلهة الى تجليات الذات الانسانية نفسها، ومحاولتها في حل ألغاز هذا الكون. اي ان ماقام به ماني هو ان جعل الاله في داخل الانسان، روحاً وفكراً. ومصدراً ، لهذا نرى ماني لا يرفض من الديانات الا الديانة اليهودية لأنها ديانة متزمتة ومتطرفة . اما فلسفته في خلق الدنيا فأنها تعطي الاخلاق اساساً عقلياً و الهياً.

ان ايمان ماني بالانسان كوحدة فاعلة في الكون، واعتبار الالهة هي احدى تجليات الفكر الانساني، هو من اهم منجزات ماني في تلك الفترة. لذلك حاول بث روح الوحدة بين الامم، باعتبار ان الانسان هو العنصر الاسمى، وهو صاحب الفكر والدين بحد ذاته. هذه النقطة هي النقطة الاساسية في الفلسفة المانوية. ولقد كان اول حديث لماني هو«اشكرك يا الهي لانك خلقتني في بابل ولانك قبلتني طالباً عندك». وبحسب توارد الروايات بدأ ماني التبشير لدينه وهو في الثاني عشر من العمر حيث قال:« لقد جائني الملك الذي توسط بيني وبين ملك النور، وقال لي: يجب ان تخرج من هذه الجماعة. فعليك الان مهمة جديدة، وهي ترتيب العرف والتقاليد و التحكم في الذوق، لكن ولصغر عمرك فمازال الوقت مبكراً من اجل دعوتك ». هنا يمكننا فهم حقيقة الديانة المانوية، فهي تهذيب وترتيب العرف والعادات والتقاليد التي كانت تفتك بمجتمعه، وكذلك لتصحيح ذوق الانسان، ومعايير فكره الاساسية لجعل الحياة اجمل. ثم يقال

بان الملاك الذي اسمه « القرين » جاءه مرة اخرى بعد ان كبر في العمر، فقال له« لقد كبرت وقد آن الاوان لدعوة دينك الجديد، فقم وبشر به، ستكون دعوتك بداية للسلام ».

تعتمد فلسفته على متناقضين دائماً وهما (النور والظلمة) اي الخير والشر. ونرى باستعراض كيفية هجوم الظلمات على النور وتمازجها معه. اما اسطورة تكوين المانوية فتقول ان العالم خلق من النور وان نهايته هي بالرجوع الى البداية؛ أي الى نقطة البداية التي ابتدأ منها الخلق. كذلك تبشر الاسطورة بأن الظلمة والشر لاتقبل اندماج أي شيء في داخلها، لهذا ستبقى على حالها. اما النور فيمثل في داخله كل الاشياء، ولهذا سيكون الانتصار في النهاية للعنصر النوراني . ولقد اخذ هذا الصراع على مراحله اثر له في سيكولوجية الانسان في الديانة المانوية وفي تعاليمها المختصة بالانسان. حيث توجب هذه الديانة على الانسان ان ينظر الى الجانب المظلم والشرير في داخله. وفي نفس الوقت يرى الجانب المضيء والخير في هذا النفس. أي ان الخير والشر في داخل الانسان. كذلك تؤكد هذه الديانة على ان الجانب المضيء والخير من الانسان هو ملك للاله النور، ويرجع اليه في النهاية. اما دنيا الظلمات والمساوئ فهي دنيا المادة. كذلك يخلق من النور السلام؛ عندما يحدث الصراع بين الظلام والنور (أي مابين المعرفة والجهل والخير والشر..الخ) فان الظلمة تقوم برمي نفسها برغبة شديدة الى داخل النور، وبذلك تنتهي الظلمة. اما عندما تنتصر الظلمات وقتياً فان الظلم يبدأ على الارض ويأتي بالجور والقهر والاستعباد.وستمحى العناصر المهمة في النور وستربط بالمادة. أي الانسان بجهله يضفي على الدنيا المادية بعض عناصر الجمال الغير الحقيقية، اضافة الى ذلك اتسمت الفلسفة المانوية بالمساومة والتسامح وكره استعمال الشدة والعنف، والتساهل امام المشاكل في قوله:« لن يقتل احد بقولي ». ولم يهدف ماني الوصول الى السلطة، لانه اراد ان ينشر هذه الديانة ضمن جميع الاقوام.

اما الاخلاق المانوية فقد وسعها سلسلة من القواعد، وخاصة الخواتيم السبعة، التي منها اربعة روحانية تتعلق بالعقائد، وثلاثة تبحث في سلوك المؤمنين. هذه الثلاثة هي : خاتم الفهم (الكف عن الكلام المؤدي

الى الكفر او الخبث)،وخاتم اليد (الاحتراز من كل فعل أو تصرف يغضب النور)، وخاتم القلب (تجنب الاستسلام للشهوات الجنسية المحرمة). وحرم على اتباعه المهن التي تغضب العناصر، والسعي وراء الثراء أو البذخ. وحرم عليهم لحم الحيوان، وطهي الخضر لأن فيها اغضاباً لذرات النورالتي فيها. وكذلك حرم عليهم شرب الخمر، وعليهم الا يملكوا سوى غذاء يوم واحد، وكساء سنة واحدة، وان يعيشوا بلا زواج، وان يطوفوا بلاد العالم يبشرون بالدين وينصحون الناس بالاستقامة .

اما السماعون فلهم ان يعنوا باعمالهم ويمارسوا مهنهم وان يأكلوا لحم الحيوان، على ان يذبحوه بايديهم، ولهم ان يتزوجوا، ولكن عليهم ان يسيروا سيراً مستقيماً، وان يجتهدوا في ألا يتعلقوا بامور الدينا. وكان على المؤمنين عامة اداء العشر، والمحافظة على الصيام والصلاة؛ يصومون سبعة ايام كل شهر، وهذا يدل على تربية النفس وتاديبها وتقوية ارادتها: ويصلون اربع مرات في اليوم لتقوية ارتباطهم بمبادئهم وبديانتهم وبالنور الذي يهتدون اليه. وكانت الزكاة فرضاً. ولم يكن المانويون يعطون الماء او الخبز الى الكفار، لأن في ذلك اعتداء على ذرات النور التي في الماء والخبز. ولكنهم كانوا يعطونهم الملابس والنقود وغيرها من الاشياء التي لا نور فيها. وبفلسفته هذه اراد ان يخلق انساناً عالياً ومجتمعاً مثالياً لاشبيه له.

كما كان ماني يعطي الاهمية الكبيرة للعلم والفن، وبرزت شخصيته في ذلك وكان ينبوع الفن، حيث كان يجيد الرسم وكان له مهارة في الخط والنقش. وكذلك كان يمارس فن الطب، ويستمع الى الموسيقا. اضافة الى مهاراته هذه كان له اسلوباً جذاباً لتنظيم الشخصيات. وهناك مصادر تفيد بانه نجح في ادخال اخوين لشابور في دعوته، وذلك من خلال حديثه عن حديقة الانوار، وجنة النور بآلهتها وملائكتها وسعادتها. وهذا الاسلوب الذي كان يتقنه لتنظيم الناس هو ايمانه المطلق بالنور، وان كل شيء نهايته هو النور. وبذلك كان يريد ان ينهي ذلك المجتمع المثالي الذي كان يتخيله. وضمن هذا المجتمع كان تقربه من المرأة ذو شأن كبير. فكان يرفعها الى مرتبة يقدرها المجتمع وذلك من خلال المرأة التي كانت الى

جواره اثناء تجواله. فعندما كان المجتمع يقدر ماني، فانهم كانوا يقدرون تلك المرأة.

جعل ماني الجانب الروحي والمعنوي في المرتبة الاولى، والجانب المادي في المرتبة الثانية، كما في قوله « ياتي يوم لايبقى في حدائق الانوار (روح الانسان) شيئاً باسم المادة سوى الرائحة والالوان». ونتيجة مناظرة بين ماني ومعارضيه، غلب على امره لان معارضيه حكموا عليه بالسجن، واتهموه بالكفر وعذبوه عذاباً، الا انه لم يتنازل عن مبادئه وايمانه المتمثل في حدائق الانوار. ودفع ثمناً لذلك حياته ومات في عام ٢٧٦ ميلادية في السجن. وهناك بعض الاديان الاخرى تقول بانه تم صلب ماني وسلخ حياً ، ثم قطع رأسه وحشى جلده وظل معلقاً على احد ابواب مدينة جند يسابور، وقد سمي هذا الباب بعد ذلك « باب ماني ». وبعد موت ماني رأس الديانة المانوية، بناء على وصيته، احد تلاميذه المسمى "سيس". واقام هذا في بلاد بابل ثم صلب وخلفه "اينايوس" في رئاسة المانويين. وهكذا انتشر الدين الجديد في انحاء المنطقة. وبقي في صورة شبه سرية نتيجة الاضطهاد الذي كان يلاقيها المانويون من معارضيهم. وهذا الاضطهاد ادى الى هجرة الكثير منهم الى اقاليم اخرى في الشرق والشمال.

نستنتج من ذلك بان ماني رغم المعاناة التي تلقاها في حياته، عند نشر ديانته لم يتخل عن مبادئه وبقي مرتبطاً بها، وبذلك اراد ان يخلق ارادة قوية عند مناصريه واتباعه، وينشأ مجتمعاً مكوناً من اخلاق عالية خالياً من الاستغلال والطبقات ولا يحكم شخص، شخصاً اخر. وتسود المساواة والعدالة والتسامح فيها، من خلال حدائق الانوار التي كان يستمد منها القوى المتمثلة في (روح الانسان). وبهذا يشكل فلسفة يأخذ منها الهامه ليجسد بذلك على المجتمع والانسان.

اليهودية:

هي التيار الديني التي تمتد جذورها الى ابراهيم (ع)، الذي خرج ضد الظلم وجور نمرود، والذي كان قد اعلن نفسه الهاً. بدأت وتطورت اليهودية مع ظهور ابراهيم (ع) في مدينة اورفا وسهل حران، وذلك عندما قام بكسر الاصنام التي كان يعبدها قوم نمرود المشرك. حيث

دعا ولاول مرة الى عبادة الاله الواحد. وهذه الدعوة كانت جديدة على قوم رزح تحت نير اشخاص مؤلهين. ولهذا ومن اجل تطوير افكاره الدينية التوحيدية ضمن ظروف وشروط غير مهيئة لذلك، دخل ابراهيم (ع) في صراعات ومقاومات عنيفة ضد النظام السائد. ونتيجة الفشل الذي مني به في نضاله ضد "نمرود" اجبر للهجرة مع افراد عائلته باتجاه فلسطين؛ فالقدوم بافكار ودعوة جديدة للمجتمع، وعدم الايمان بها من قبل ذلك المجتمع كان سبباً من اسباب تلك الهجرة، ومن اجل نشر دعوته وترسيخ الدعائم الاولى لفكرة الاله الواحد بين الاقوام التي هاجر اليها في فلسطين ومصر ومكة. ولاقى خلالها المصاعب والمشقّات الكثيرة، الى ان استقر في مكة وبناءه للكعبة. وبعد مماته تم نشر هذه الفكرة من قبل ابناءه اسحق ويعقوب اللذين هجرا الى مصر ووادي النيل. وهناك انتشرت هذه الدعوة عن طريق ابناء يعقوب الذين عرفوا ببني اسرائيل.

كانت مصر الفرعونية تعيش مرحلة متطورة من الحضارة، على النقيض من بني اسرائيل ذلك القوم المهاجر، الذي اصبح عبئاً وعائقاً امام التطور السائد. وبهذا اصبحوا مصدر خطر وتهديد على تلك الحضارة. مما خلقت التناقضات بين بني اسرائيل والسلطة الفرعونية، وظهرت هذه على شكل اساطير، وتداولت فيما بعد. مثلاً « يرى فرعون في حلمه ناراً تتقدم من جهة المقدس وتحرق جميع اهل مصر ما عدا بني اسرائيل، وبعد تفسير هذا الحلم الذي جوهره هو ولادة غلام من بني اسرائيل، سيكون هلاك الفرعون على يده، لذا امر فرعون بقتل كل غلام ذكر من بني اسرائيل ». وفي هذه الظروف المتأزمة والمتناقضة ظهر موسى (ع) . وبتجليله لقومه (بني اسرائيل)، اراد انقاذهم من العبودية والانحطاط، والفساد، والانحراف الاخلافي السائد والذي لحق بقومه في تلك المرحلة. وبتبني موسى (ع) النبوة، ازدادت التناقضات بينه وبين الفراعنة الذين اعتبروا انفسهم الالهة على الارض وهذا مايتناقض مع عقيدة موسى (ع)، الذي اثر بدوره على المجتمع.

نتيجة الظلم والقسوة التي الحقت بموسى (ع) وقومه من قبل الفراعنة، لم يبق امامه سوى طريقين، اما ترك الدعوة والخنوع للفراعنة، او الاصرار في الدعوة ونشرها بين قومه من اجل الخلاص. واختار

موسى الطريق الثاني بجمع قومه والهجرة الى فلسطين موطن ابائهم واجدادهم، هرباً من ظلم الفراعنة. وفي اثناء الهجرة عبر صحراء سيناء، واجهتهم مصاعب كثيرة كالموت والجوع والحرب والقتل والتيه لمدة اربعين عام. هذه المصاعب اصبحت بمثابة انبعاث جديد لبني اسرائيل. فمن اجل ابقائهم وتحريضهم على متابعة الهجرة، شرّع لهم مبادئه المأخوذة من فكرة التوحيد لابراهيم (ع)، وبأن قوم بني اسرائي هو شعب الله المختار، وبهذه الفكرة قام بتوحيد اليهود ولمّ شملهم، وايصال اليهودية كدين لليهود. فكرة موسى (ع) هذه اثرت فيما بعد وبمرورالزمن بشكل سلبي عليهم ، كونهم رأوا انفسهم قوم سامي وله الحق في استعباد الشعوب الاخرى. وهذه الخصوصية هي السمة الخاصة باليهود فقط. بهذه الايديولوجية تمكن اليهود من الانفتاح على فلسطين، واصبحوا ذوي سلطة و نفوذ فيها كونها الارض الموعود لهم. وبهذه المفاهيم تم صياغة الديانة اليهودية بشكلها المتجمد والمتعصب، والتي اصبحت ميزة لهذا القوم حتى يومنا الحاضر.

ظل اليهود زمناً طويلاً يؤلفون اثنا عشرة سبطاً مستقلين، ونظام حكمهم لايقوم على اساس الدولة، بل على اساس الحكم الابوي في الاسرة، وكانت الاسرة هي الوحدة الاقتصادية التي تقوم عليها زرع الارض ورعي الحيوانات، وكانت مكانتها هذه مصدر قوتها وبقاء كلمتها وسلطانها السياسي.

عندما تولى سليمان (ع) العرش قتل جيمع منافسيه في الملك ليستريح من متاعبهم. ولكن عمله هذا لم يغضب اله يهوه اله اليهود الاوحد بل اثنى عليه حسب ما اعتقده اليهود. وبعد ذلك تم تعليم اليهود من قبل سليمان، واقنعهم بنبذ الشقاق والحرب والالتفات الى العمل في الحرف والزراعة والسلم. و كان عهده عهد السلام، حيث استفادت اورشليم التي كانت عاصمة لداوود من هذا السلم، واصبحت اورشليم في ايامه من انشط الاسواق التجارية في الشرق الاوسط. وان لم تكن على الطرق التجارية الكبرى، وبهذا اشتهر اليهود بمقدرتهم التجارية واصبحت صفة لهم ولديانتهم، وكذلك اهتم بتنظيم امور وشؤون الحكم والدولة والعمران. وبعد

تفرغه من اقامة ملكه، شرع يستمتع بانجازاته، واخذت عنايته بالدين تقل على مر الايام.

بعد موته انقسمت فلسطين الى مملكتين متعاديتين: مملكة افرايم الشمالية، ومملكة يهوذا الجنوبية (اورشليم). وبدأ الضعف والتشتت يدبّ بين اليهود، ومهد ذلك الى حدوث جو مشحون بعوامل التفكيك السياسي، والانقسامات، والحرب الاقتصادية. وحتى الانحلال الديني. ونتيجة عوامل القحط القاسية مع العوامل الاخرى، مهدت الطريق لسيطرة الامبراطورية البابلية عليهم. و ذلك في عهد الملك البابلي " بختنصر" الذي وسع من حكمه حتى وصل الى حدود الهند شرقاً والى منطقة بلاد النيل غرباً. حيث كان العبرانيون يسكنون في فلسطين. وبعد ان اصبحت فلسطين ولاية لبابل، اخذهم البابليون كعبيد لهم وليعملوا لديهم. وبهذا تم فرض قوانين الحكم البابلي على السكان اليهود، ولاقى اليهود على يد البابليين اشد الظلم والجور والتعسف، وادى بدوره الى تشتت اليهود وانتشارهم في العالم. وبقي وضع اليهود هكذا حتى مجيء الفرس في عهد الملك " قمبيز " كورش الفارسي، الذي قضى على الحكم البابلي والحقت ارض الميعاد بأرض فارس. واتبع الملك الفارسي سياسة متسامحة مع اليهود والسماح لهم بالعيش على ارضهم بسلام مقابل ولائهم للحكم الفارسي. وهكذا نرى بان اليهود لم يتحدوا بشكل فعلي الا في عهد الملك سليمان وداوود، وبعد ذلك عانوا التشتت والتوزع في جميع انحاء العالم، حتى بداية تأسيس الحركة الصيهونية اليهودية بقيادة منظرهم الايديولوجي "تيودور هرتنزل " بعد ان تم مؤتمر هذه الحركة الاول في سويسرا عام ١٨٩٧. وتم اتخاذ قرار العودة الى ارض الميعاد فلسطين. واتخذ اسم الحركة من صهيون وهو جبل يحيط باورشليم. وباتفاقية (وعد بلفور) التي تمت من قبل المعتمد البريطاني السامي، منح الحق لهم في فلسطين وتم اعطاء هذا الوعد لحاخامات اليهود وعلى رأسهم روتشيلد الصيرفي، وبذلك بدأت موجات الهجرة تمتد تباعاً الى فلسطين في ١٤ نيسان ١٩٤٨.

الديانة اليهودية ، التوراة ،الاسفار، والوصايا العشرة:

ان فكرة اتخاذ يهوه كاله اليهود الاوحد مالبثت ان تبلورت واكتسبت في الديانة اليهودية وحدة وبساطة، كانت سبباً في انتشالها من فوضى الشرك الذي كان يسود ارض شبه الجزيرة. وكان اليهود يؤمنون بعدة الهة اخذوها من الحضارات المجاورة لهم. لذلك نرى يهوه يقول في الوصية الاولى بعد ان يطلب بان يكون فوق مقام سائر ارباب الاديان الاخرى؛ ويقر بانه اله غيور، ويامر اتباعه بهدم مذابحهم وتكسير انصابهم وابادتهم. وقلما كان اليهود قبل اشعيا يفكرون بان يهوه كان اله اليهود اجمعين، وحتى اله العبرانيين جميعاً. ذلك ان النزعة الانفصالية التي كانت تمتلك نفوسهم من الناحيتين الاقتصادية والسياسية، ادت بطبيعة الحال الى ما نسميه استقلالاً دينياً. ولذلك كانت اقرب الى التوحيد واولها الموحدة للاله قبل عصر الانبياء، اذا استثنينا اله الشمس عند اخناتون. ولم يكن يسمح لاحد بمس تابوت العهد الذي يحتوي على ملفات السنين، وكان رمزاً لطبيعة العقائد اليهودية. وتعد الخطيئة هي الفكرة الاساسية في الدين اليهودي. واهم امر اهتم به الانبياء من بني اسرائيل كان كتاب التوراة والذي تم كتابته، لان الشعب شرع يرتد عن عبادة يهوه الى عبادة الالهة الاجنبية، واخذ الكهنة يتسائلون: الم يأن لهم ان يقفوا وقفة قوية يمنعون فيها تدهور العقيدة القومية.

وتعتبر اسفارهم الخمسة التي تليت على الشعب بامر يوشيا وعذرا هي التي صيغت منها القوانين الموسوية، التي قامت عليها الحياة اليهودية باكملها فيما بعد. حيث يقول سارتون معلقاً على هذه الشرائع: «ان اهميتها في تاريخ الانظمة والقوانين، يفوق كل تقدير». وكانت اكبر محاولة في التاريخ كقاعدة لسياسة الامم، واداة لتنظيم كل صغيرة وكبيرة في الحياة كلها. وهذه الاسفار هي سفر الخروج وتتألف بدورها من عشرة وصايا، وسفر الجامعة وسفر التكوين وسفر الامثال وسفر ايوب والعديد من المزامير التي انبثقت من الشعر اليهودي الغنائي، والتي تعبر عن حالة اليهود الروحية وعواطفهم، كما يلاحظ ايضاً مدى تأثيرهم بترانيم الديانة

البابلية التي كانت ترتل في المعابد. واهم هذه الوصايا في سفر الخروج هي:

١ـ الوصية الاولى هي اساس المجتمع الجديد وهو المجتمع الذي لا يقوم على اية شريعة مدنية، بل على فكرة الله الملك القدوس، وكذلك يأتي التعصب الديني في هذه الوصية.

٢ـ سميت الوصية الثانية بفكرة الله بقدر ما حطت من شأن الفن اذ حرمت ان تصور له اية صور منحوتة، وقد افترضت هذه الوصية بوجود عقل راقي عند اليهود.

٣ـ وتنطق الوصية الثالثة بما كان يتمسك به اليهود من تقي وتدين، فهو لايحرم عليهم ان ينطق باسم الله عبثاً فحسب، بل يحرم عليه النطق باسم الله تحريماً مطلقاً.

٤ـ قدست الوصية الرابعة يوم الراحة الاسبوعي السبت وصارت سنة من ارسخ السنن لديهم.

٥ـ الوصية الخامسة تقدس الاسرة من حيث بناءها وتضعها في منزلة لاتقل عن منزلة الهيكل.

٦ـ الوصية السادسة مبدأ مثالي صعب المنال اي الكبرياء المترفع لشعب الله المختار الذي لايهزمه احد.

٧ـ الوصية السابعة تعترف ان الزواج هو الاساس الذي تقوم عليه الاسرة.

٨ ـ الوصية الثامنة هي في الاحسان الى الاخ الفقير واعطائهم الصداقات ومعاملتهم معاملة حسنة. واطعام الغريب وايوائه ومعاملته معاملة كريمة.

٩ـ الوصية التاسعة تطلب ان يكون الشهود شرفاء وامناء الى اقصى حد، وبذلك جعلت الدين عماداً للشريعة اليهودية.

١٠ـ الوصية العاشرة فتقدس الملكية الفردية، وكانت هي والدين والاسرة هي الاسس الثلاثة التي قام عليها المجتمع اليهودي.

باختصار الوصايا العشر شريعة سامية خاصة بهذا الشعب كنظام اخلاقي ومبدأي، وله دور التنظيم من جميع النواحي الاقتصادية والحقوقية والاجتماعية للمجتمع.

يظهر الدين اليهودي في مرحلة التحول الطبقي وهي مرحلة مهمة لعب فيه دوراً مؤثراً في علاقات الاستغلال والظلم والجور الطبقي على مر العصور، وهو دين قومي لايحوي ضمنه عدا الشعب اليهودي. كما ظل محدوداً وضيقاً في تمثيله ونهجه. كذلك طبعت المجتمع العبودي بطابع العلاقات التجارية، فاصبح بذلك دين التجارة لليهود ومهد بذلك المام اليهود بالاقتصاد واصول التجارة، والسيطرة على مراكز الاقتصاد العالمي.

والعامل السلبي لهذا هو تقديس المجتمع اليهودي ووضعه في موقع سام في العلياء. هذا الاقتراب والنهج هو الذي جعل اليهودية محدودة، وغير شمولية في نطاقها الايديولوجي والفلسفي، بذلك يشكل العامل السلبي وسمة لها حتى يومنا الراهن.

تمت ولادة هذا الدين في مرحلة لم يصل فيها اليهود الى مرحلة التشكيل القومي بعد، وفي موقع يتوسط الحضارات بين بلاد النيل وبلاد ما بين النهرين. فبدت الديانة اليهودية كأولى الاديان الموحدة للاله الواحد. ولكن السمة التي تتميز بها الديانة اليهودية هي انها ليست بديانة القبيلة اوالانسانية وانما دين قوم اليهود وحدهم لشعب الله المختار. وهذه السمة جعلت بني اسرائيل يتعرض باستمرار الى هجمات من القوى المجاورة لها، والتي جعلت بذلك من حولها اعداء لها ووضع الشعب اليهودي في وضع المشكلة باستمرار على عاتق الانسانية، وذات آثار سلبية والحاق الاضرار لكل من يجاورها ويستمر الى يومنا الراهن.

المسيحية:

ظهرت المسيحية في اواسط القرن الاول الميلادي في الولايات الشرقية من امبراطورية روما. وفي بداية القرن الثاني وصلت الى اليونان وسرعان ماظهرت في شبه جزيرة ابنينو. فوضع الجماهير الشعبية المتردي وحرمانها من الحقوق، قد اديا الى انتشار الافكار الدينية والصوفية عن فناء الحياة الارضية، والتأمل بمستقبل في العالم الاخر، ونمو هذه الافكار هيأ ظهور العقيدة المسيحية.

كانت فلسطين رازحة تحت الحكم الروماني آنذاك. وادى تردي الوضع الى نتائج خطيرة في المجتمع اليهودي الذي كان يعتنق الديانة اليهودية، والتي اصبحت بيد الكهنة الموالين للحكم الروماني، والذين وضعوا الديانة اليهودية في خدمة النظام القائم في المجتمع، وعلى الاخص التقرب من سلطة الامبراطورية الرومانية والولاء لها. وعند ازدياد تأزم الوضع المعيشي لليهود في المنطقة، والذي ادى بدوره الى حدوث فراغ عقائدي، وفكري في حياة المجتمع اليهودي الذي دعا الانسان للتفكير في صحة الديانة اليهودية، ومدى مصداقية هذه الديانة في تحقيق الامال الانسانية. ومجمل هذه الظروف مهدت السبيل لظهور الدين الجديد الذي سيبشر بعهد جديد لخلاص الانسانية من الظلم ونير العبودية. وبولادة المسيح في بيت لحم القائمة على بعد خمسة اميال جنوبي القدس "اورشيليم " من اسرة فقيرة. ويحدد القديسين " متى ولوقا " وهما من حواريي عيسى بان ميلاده كان في الايام التي كان هيرودس امبراطوراً، وبان مولد المسيح في بيت لحم، وبعد ذلك انتقلت اسرته الى الناصرة.

لقد كان المجتمع اليهودي ينتظر على احر من الجمر مجيء المسيح المخلص، والمنقذ لبني اسرائيل، لأنه تم التبشير بقدوم المسيح قبل ولادته بمدة من الزمن لضرورة ظهور شخصية تاريخية بهذا الشكل والنمط . عند بلوغ المسيح أخذ يستمع الى التلاوات المقدسة للتوراة والزبور بسرور وشغف، ولذلك فإنه امتلك معرفة بالديانة اليهودية، واصولها وتعاليمها، ومضمون ومحتوى التوراة. وتأثر بها، لكنه أخذ يمهد لمبادئ وافكار، وتعاليم جديدة. فكان يعيش زاهداً يختلط مع الفقراء اكثر من الاغنياء ، حيث كان يدرك بأن الاغنياء لن يؤمنوا برسالته. ولم يعترف في البداية بأية فروقات سلالية او اجتماعية ، وهذا ما زاد من

انجذاب عواطف المحرومين والمضطهدين لهذه الرسالة. ومع انه كان ذا عقل يقظ، لكنه لم يتعلم تعليماً منظماً، وكان يتردد على المجتمع الديني وتأثر اكثر بحماسة دينية؛ بعظاة يوحنا ابن اليصابات قريبة مريم.

قام المسيح بدعوة الناس الى التوبة والتطهير والتعميد لمرة واحدة. وقد آمن المسيح بتعاليم يوحنا، فإن تعاليمه لاتختلف عن تعاليم يوحنا في جوهرها، اما اساليبه واخلاقه فكانت تختلف عن امثالها عند يوحنا. وكذلك تأثرت المسيحية بالديانة اليهودية والتي كانت ديانة توحيدية للاله. كما استفادت من التعاليم الزردشتية بصورة كبيرة. ويمكننا رؤية الخط التحرري والمسالم على جميع شعائر الديانة المسيحية، مما جعل الشعب اليهودي يقترب اليها وخاصة الطبقات المستضعفة والمستعبدة، حيث اصبحت الديانة المسيحية طريق الخلاص من العبودية والقهر. ونظراً للاحساس الخفي للشعب اليهودي بالقهر والظلم الاجتماعي، اضافة الى تأثير المعايير الموروثة في المجتمع اليهودي كونه شعب الله المختار، وتناقض هذا المفهوم مع الواقع المعاش، هذا ما أعطى للمسيح الدور التاريخي بنشر الدعوة. وفي سفر اشعيا يقول المسيح « روح الرب عليّ، الآن الرب مسحني لابشر المساكين، وارسلني لأعظ منكسري القلب، لأنادي للمسبين بالعتق، والمأسورين بالاطلاق »، « والعمى بالبصر وارسلوا المسحقين في الحرية ».

ولما عرف ان يوحنا قد قتل وان اتباعه كانوا يبحثون عن زعيم جديد، تحمل يسوع العبء وما يتبعه من اخطار. وانزوى في حيطة وحذر الى القرى الهادئة، وصار يتجنب على الدوام الجدل السياسي، ثم اصبح في كل يوم اعظم جرأة في اعلانه انجيل التوبة والايمان والنجاة. حتى ظن اتباعه انه هو يوحنا قام بين الموتى. وينصح بنبل وشرف ان لايحكم احد حتى لايحكموا عليه، ولكنه يلعن الناس والمدن التي لم تؤمن برسالته ويلعن شجرة التين التي لم تكن تحمل ثمرا.

كان المسيح يتصف بحماسة النبي العبراني وغضبه للحق من حين الى آخر، معالم انسانيته العميقة والذي يبني آماله على ماتمناه ان يحدث من انقلاب يدخل الفقراء الوضيعيين الاعليين في ملكوت الله.

ويرغب في ان يكون تغيير طبائع الناس وسيلة لتبديل النظم والاستغناء عن كثير من الشرائع.

اعتقد المسيح بالشرائع السماوية، لذا فانه امتاز بالتسامح واحقاقه الحق، والعدالة الاجتماعية والمساواة في تلك المرحلة، ويتبين اكثر مع علاقاته وشكل اقترابه من الفئات والطبقات المسحوقة في المجتمع، ومن الخصائص التي كان عيسى يتصف بها؛ النفور من الحرب والاقتتال، والركون الى السلام والوئام بين الناس. فكان خير مبشر للسلام في تاريخ الانسانية في تلك المرحلة. ودليل ذلك مدى قدسية اكليل الغار واغصان الزيتون في عهده، والتي تظهر في آرائه وافكاره.

اعتمد المسيح في نشر الدعوة لاحقاً على المقربين اليه من حواريه، والذين بدأو بشكل فعلي بنشر الدعوة بعد وفاته في جميع انحاء العالم. وتعرف المسيح على القديس الحواري" بطرس" في "الجليل"، ويعقوب "ويوحنا" ايضاً في (الجليل)، كما تعرف على" متى" الذي كان جابياً في " كفر نحوم" القائمة على الحدود، ووصل عدد هؤلاء الرسل والحواريين الى اثنا عشر، ويتبع هؤلاء الحواريين اتباع بلغ عددهم السبعين، مع عدد من النساء الصالحات. لقد بدأ المسيح تعاليمه مع انجيل يوحنا المعمدان وتأثر به. ومن اقواله المهمة في الانجيل « فأما من تاب وأناب، وسلك سبيل العدالة، واحب الله، وآمن برسوله. فانه يرث ملكوت السماوات، ويسموا الى القوة والمجد في عالم يحرر اخر الامر من جميع الشرور والالام والموت ».

ولايخفي المسيح ابداً احتقاره للرجل الذي يجعل همه في الحياة المال والانغماس في الترف. وانه لايبشر بدولة جديدة، بل الاهم انه يضع الخطط الرئيسية لمبادئ اخلاقية مثالية. وكانت تلك المبادئ الاخلاقية هي التي تنبأ بقيامها عندما يحل موعد ملكوت الله، والمقصود ان يكون الناس خليقين بالدخول في هذا الملكوت. ومن ثم التطويبات وما فيها من تمجيد الوداعة، والفقر والرقة، والسلام الذي لم يسبق له مثيل. وكانت نصيحته ان يديرالانسان خده الثاني لدى تلقيه اية صفعة أو ضربة. واثنى عيسى على الذين تجردوا من تأثير العلاقات الجنسية، والزواج، ومن الفقر والحرب لاجل ملكوت السموات. وهي مبادئ اخلاقية ضيقة في اغراضها،

لكنها عامة في مجالها، لانها تطبق فكرة الاخوة والقاعدة الذهبية على الاجانب والاعداء كما تطبقها على الجيران والاصدقاء.

ويعتبر العشاء الاخير ذا اهمية قصوى، كون المسيح اجتمع مع حواريه لاخر مرة قبل ان يتم اعتقاله وصلبه من قبل الامبراطورية الرومانية. حيث اجتمع عيسى بحوراييه الاثنى عشر متناولاً العشاء معهم، ومنحهم وصاياه وآرائه. وانه ادرك قرب منيته، والاخطار المحدقة به. ولذلك جمع حواريه وبقى معهم حتى الصباح، وذلك في اليوم الثالث من شهر نيسان عام ٣٠ ميلادية. وبعد ذلك تم اسره وصلبه من طرف الرومان، وبذلك تحولت الدعوة على المبشرين من حواريه، لنشرها في كافة انحاء العالم.

بدأ الحواريين بنشر الدعوة المسيحية باتجاه انطاكية، والتحضير لتنظيم فعاليات بناء الكنيسة المسيحية على الرغم من القمع والضغوطات من قبل الرومان. واخذت هذه التبشيرات تشد الجماهير الفقيرة، والفئات المسحوقة، وتجذبهم اليها لاعتناق هذا الدين الجديد، والذي لم تقبله وترضى عنه السلطة السياسية الرومانية في المنطقة. في البداية استخدمت القوة العسكرية لقمع تحركاتهم ومحاولاتهم لنشر الدعوة المسيحية. ولكن نظراً لازدياد تأثير تعاليم الدين الجديد على الناس في انطاكيا والمناطق المحيطة، فان الدولة الرومانية رضخت للامر الواقع وبانها لن تعمد الى استخدام القوة في قمع دعاة الدين الجديد، وانما افسحت المجال لهم راغبة بها لاخذ الدين تحت حاكميتها ومراقبتها، للحد من اتساعه وانتشاره. فتحولت الديانة الى شكل من اشكال المؤسسات الدينية (الكنيسة) في انطاكية. وبذلك خطت الدعوة خطواتها أولاً في الشرق بين شعوب الشرق الاوسط.

امتدت المسيحية نحو الغرب بعد امتداد تأثيرها بين الجماهير المسحوقة والفقيرة. واستحوذت بذلك على قاعدة جماهيرية واسعة من الناس، ويعود السبب في هذا الانتشار الى نتيجة الازمة المتفاقمة من الناحية المعيشية، وانتشار الفقر المذمع بين الناس. وكذلك الفساد السياسي والاداري في الدولة الرومانية، وبالاخص عام (٢٥٠م). وفي عهد قسطنطين اصدر مرسوم ميلانو، وذلك في اوائل عام (٣١٣م) الذي

يعتمد على التسامح الديني واعطاء حريات العقيدة والدين، واعادة الممتلكات التي كانت قد صدرت من المسيحيين، وبذلك اصبح هذا الدين ديناً رسمياً للدولة.

انقسامات الكنيسة والمذاهب المتشكلة في المسيحية

شهدت الكنيسة انقسامات فيما بينها وذلك في عام ٣٨١ م ، واكتمل ذلك بشكل نهائي وفعلي عند انقسام الدولة الرومانية الى امبرطوراية شرقية "بيزانطة "، وغربية هي " روما "، ذلك عام ٣٩٥م . وهكذا انقسمت الكنيسة ومعها المجتمع المسيحي الى كنيسة شرقية **ارثوذكسية** مرتبط بالامبراطورية الشرقية " البيزنطية ". وكنيسة غربية **كاثوليكية** مرتبط بامبراطورية " روما ".

في العهد الباكر كانت المساواة سائدة في الطوائف المسيحية التي كانت تضم الفقراء في الغالب، ولكن ما ان اخذ ينضم الى المسيحية ممثلوا الاوساط الغنية الغير راضية بهذه الدرجة او تلك عن النظام القائم، حتى راحت تزول شيئاً فشيئاً البساطة في العلاقات والطابع الديمقراطي للطوائف المسيحية. حيث اخذت مقتضيات العبادة تزداد تعقيداً، والهبات الطائلة التي شهدت ازدياد نفوذ الاشخاص الذين كانوا يتصرفون بملكية الطائفة ويشرفون على اداء الطقوس، اي الكهنة والقساوسة والاساقفة. وبدأ انفصال الفئة المسماة **بالاكليروس** عن المسيحيين البسطاء، واخذت تنشأ الكنيسة المسيحية. هكذا اكتسبت المسيحية سمات وخصائص جديدة ساعدتها الى جذب الطبقة السائدة الى جانب الدين المسيحي، وبذلك تحولت المسيحية الى اداة يستخدمها اسياد العبيد لقمع الجماهير الشعبية روحياً، وبذلك لعب الدين والكنيسة دوراً حاسماً في ايديولوجية المجتمع الاقطاعي.

الكاثوليكية: بعد انقسام الكنيسة المسيحية الى غربية وشرقية، غدت الكاثوليكية الاساس الايديولوجي للنظام الاقطاعي في اوروبا الغربية، وهي الممثل لدور الكنيسة والدين في المجتمع الاقطاعي. حيث ان الكنيسة الكاثوليكية كررت من حيث تركيبتها السلم الاقطاعي الهرمي؛ فقد كان البابا السلطة الدينية في روما على راس الكنيسة الكاثوليكية، ومن ثم الكرادلة

والاساقفة ورؤوساء الاديرة وهكذا دواليك. واخيراً خوارنة الرعية الذين يحتكون مباشرة بالسكان. وكانت الكنيسة الكاثوليكية مالكة اقطاعية كبيرة مستثمرة الفلاحين والحرفيين، مستغلة جهود عملهم لصالح الكنيسة.

البروتستانتية: في القرن السادس عشر بدأت حركات الاصلاح الديني في اوربا الغربية، حيث ارتدت عن ثقافة اوروبا الغربية في القرون الوسطى المبكرة. وبعد ذلك ظهرت حركات الاصلاح الديني، التي مهدت النضال للطبقة البرجوزاية الفتية ضد النظام الاقطاعي البالي. حيث لم تستطع البرجوازية في نضالها وبوصفها (الطبقة الاستثمارية) رفض النظرة الدينية الى العالم رفضاً تاماً. لذا كانت المهمة التي طرحتها لاتبتغي تصفية الكنيسة والدين بصورة تامة، بل اصلاحها فقط. اي الاستعاضة عن الكنيسة الكاثوليكية بكنيسة جديدة بروتستانتية. والمذهب البروتستانتي عكس على اكمل صورة اراء ومصالح الطبقة البرجوازية الفتية .

ان العقائد والطقوس القائمة على جهل المؤمنين والمستندة الى التقوى الظاهرية عند الشغيلة والتي وضعتها الكنيسة الكاثوليكية على مر القرون، كانت تستجيب كلياً لاهداف طبقة الاقطاعيين السائدة. وهي ابقاء الجماهير الشعبية في حالة من الخضوع لهذا النظام.

رفض مصلحي الكنيسة والدين العديد من العقائد والطقوس في الكاثوليكية الاقطاعية، وتقدموا بعقائد جديدة. وجوهر هذه العقائد يكمن في ان التقوى انتقلت الى عالم الانسان الداخلي. لذا بسطت الطقوس الى اقصى حد، واقصاء التجهيزات والموجودات النفيسة في الكنيسة وانشاء ما يسمى الكنيسة الرخيصة، واتخذ الكتاب المقدس كمصدر روحي لمعرفة الحقيقة. ولهذا السبب انكرت عصمة البابا في روما في شؤون الدين، واتخذت بذلك الحركة الاصلاحية الموجهة ضد الكنيسة طابعاً جماهيرياً. ارتبطت بداية هذه الحركة بتقديم "مارتن لوثر" في ٣١ تشرين الاول ١٥١٧م بخمسة وتسعين موضوعة ضد صكوك الغفران. فتوجه لوثر بصورة رئيسية الى اوساط الشعب الالماني الميسورة، ودعاها الى النضال النشيط ضدد نفوذ الاكليروس الكاثوليكي في المانيا. وقد ضمنت الجماهير الشعبية صباغات لوثر الديني بامانيها الاجتماعية الخاصة، وتقبلت بذلك الاصلاح مطلباً للتحرر الاجتماعي، ورفض ان يسلم بحق الكنيسة في ان تضيف الى

المسيحية عناصر لا تعتمد على الكتاب المقدس، وانما تعتمد على عرفها وسلطتها مثل المظهر، وصكوك الغفران، وعبادة مريم، والقديسين. فيقول لوثر: « انت لاتستطيع ان تقبل كل من الانجيل والعقل، فاحدهما يجب ان يفسح الطريق امام الاخر».

خطا لوثر خطوتين باتجاه العقل فجعل الموعظة وليس الاحتفال مركز شعيرته الدينية، واعلن انه يحق لكل فرد تفسير مضمون الكتاب المقدس. واستند الى قانونه الخاص بصحة اسفار الكتاب المقدس والى اي مدى تتفق مع تعاليم المسيح حيث يقول: « ان كل مالا يبشر بالمسيح ليس رسولياً، حتى لو كتب القديس بطرس او القديس بولص.. وكل ما يبشر بالمسيح يكون رسولياً حتى لو صدر من يهوذا وبيلاطس وهيرودس». وينادي لوثر بان الله هو المتصرف والروح ولن يسمح لاحد سواه ان يسيطر عليه. و انتهى الى الرأي بان النظام الاجتماعي بحاجة الى شيء من حسم المناقشة وشيء من السلطة المنظمة. وكيف يجب ان تكون هذه السلطة..؟ على هذا السؤال اجابت الكنيسة نفسها، ويقول لوثر: « لا، ان السلطة الوحيدة والاخيرة يجب ان تكون الكتاب المقدس.. مادام الجيمع يسلمون بانه كلمة الله».

ظهرت في فرنسا ايضاً حركة اصلاحية اخرى ممثلة في شخصية جون كالفن(١٥٠٩ــ ١٥٦٤) الذي يعد احد ممثلي الحركة الاصلاحية الدينية في فرنسا، والذي كان يسلم بحتمية القدر، التي تتنافى مع العقل ويقول: « وجود المسيح في القربان المقدس بروحه لا بجسده، هي وثنية محضة. واستخدام صور للرب انتهاك صارخ للوصية الثانية، وتشجيع على عبادة الاوثان، ويجب ازالة كل الصور والتماثيل الدينية بل والصليب من الكنائس».

يؤمن كالفن بان ليس هناك خلاص خارج نطاق الكنيسة التي تؤمن بنفس الرب والمسيح، والدولة والكنيسة مقدستان، وقد خلقهم الله لكي يعملا في انسجام كالروح والجسد لمجتمع مسيحي واحد. وعلى الكنيسة ان تضع القواعد التي تنظم كل التفاصيل الخاصة بالعقيدة والعبادة والاخلاق. وعلى الدولة ان تدعم هذه القواعد باعتبارها ذراع الكنيسة الطبيعي. ويجب على السلطات الزمنية ان تكون على بصر من ان عبادة الاوثان يجب ان

لا تعرض علناً بين الناس، وان كلمة الله هي الكلمة الطاهرة الوحيد التي يجب ان يتعلمها ويتلقاها الناس. والحكومة المثالية هي حكومة رجال الدين. ويجب ان تعترف بالكنيسة التي تؤمن بالاصلاح الديني باعتبارها صوت الله. وقام كالفن باعادة تنظيم الكنيسة التي تناولها الاصلاح، وحول رجال الدين الى سلطات اتاحت ان ينظموا اولاً العبادات ثم ترفض الفردية في العقيدة وراى ان يتم الالتزام بالسلوك الخلقي.

ان هذه الحركات الاصلاحية هي في جوهرها حركات ممهدة لنشوء علاقات النظام الجديد (الراسمالية)، وظهور الطبقة البرجوازية الفتية التي تطلع الى قيادة وادارة النظام الجديد في المجتمع. لذلك عمدت الى احداث التحولات في المجتمع. وفي البداية لم تستهدف الدين برمته، انما قام بالاصلاح الديني، وفصل سلطة الكنيسة الروحية والزمنية عن السطلة السياسية. التي كانت تستهدف ابقاء الجماهير الشعبية في حالة من الخضوع ومستغلة لصالح مصالح الكنيسة.

رافق تطور ونجاح الانتاج البضاعي تحولات جذرية في بنية المجتمع، والوصول الى استنباط اساليب جديدة لاستثمار الجماهير الشعبية افضل من تلك اتي استخدمها ايديولوجيي الكنيسة الاقطاعية الكاثوليكية. وايجاد ادهى الاساليب والطرق لضمان سيطرتها على المجتمع والنظام الجديد. حيث رفض مصلحي الكنيسة والدين العديدة من العقائد والطقوس في الكاثوليكية الاقطاعية، وتقدموا بعقائد جديدة، وترجموا الكتاب المقدس الى اللغات القومية التي تتحدث بها الشعوب الاوروبية. وتدريجياً نضجت الظروف لبدء عصر النهضة في العلوم والاداب والفنون والفلسفة، والتي وجهت ضربات قاضية لسلطة الكنيسة الرجعية على المجتمع، ومهدت بذلك مرحلة الثورات البرجوزاية القومية في اوروبا.

قد ايقظ الانتاج الرأسمالي الناشئ الاهتمام بدراسه الظواهر الطبيعية، وهذا مايفسر تعاظم نهوض ودورالتكنيك والعلوم الطبيعية التي بدأت في القرن ١٥ وفي القرنين ١٦ ـ ١٧. حيث حدث انعطاف جذري في تطور العلوم الطبيعية. وخلافاً لعقائد الدين بدأت دراسة الطبيعة استناداً الى التجربة، وتمت الاكتشافات العلمية في جو من النضال العنيد ضد النظرة الاقطاعية القديمة للعالم. ونشأت نظرة جديدة الى العالم تطرقت الى

جميع وجوه حياة الانسان الروحية، الى العلم والادب والفن. وبعد بدء الثورة الفرنسية ضد الملكية التي اعتمدت على السلطة والتأثير الروحي للكنيسة في حكمها محققة الانتصار عليها عام ١٧٨٩م. والثورات في هولندة عام ١٥٧٩ـ ١٦٠٩ والتي انتهت باعلان اول جمهورية برجوازية في اوروبا.

بذلك تنفصل سلطة الكنيسة عن الحكم والسلطة السياسية في الدولة، لتبقى بذلك مؤسسة روحية ومعنوية في المجتمع لا اكثر؛ لها دور كمنبع روحي وديني في المجتمع وتفتح بذلك الطريق امام عهد الحريات السياسية والاجتماعية والحقوق المدنية والديمقراطية وسيادة القانون على اسس عصرية علمية راسخة في العصر الحديث.

الاسلام:

دعي عرب شبه الجزيرة العربية بعد ظهور الاسلام بـ «الجاهليين» لانهم جهلوا الاله الواحد. وكانوا يعبدون الهة متعددة واصناماً لا تحصى، كان لهم منها حوالي٣٦٠ في المكة وحدها ولاسيما في الكعبة معبدهم الاكبر، ومرتع كبير الهتهم كان يسمى (اللات ، المناة، والعزى وهبل)، حيث احتفظ القريشيون بالحجر الاسود واحاطوه بكل اكرام، فكان المكان الذي تتواجد فيها الالهة. كان هذا يمثل الاساس الايديولوجي عند العرب في عبادة الالهة المتعددة. من جهة اخرى كان يسود في المجتمع العربي الصحراوي الادمان على شرب الخمر والمقامرة والتزاوج بنساء

كثيرات ويلجأون احياناً الى وأد بناتهم، اي دفنهن وهن على قيد الحياة للتخلص منهن لانهن يجلبن العار لهم. ويحسبون اخذ الثار فرضاً عليهم ولامفر منه لكل افراد العشيرة.

كما عاش بين العرب جماعات من اليهود والنصارى ولاسيما في المدن؛ فاليهود هجروا فلسطين الى الجزيرة العربية هرباً من ظلم وجور الرومان، اما المسيحيون فكانوا من العرب المتنصرين او من نصارى سوريا اصحاب البدع الذين نفروا من سياسة البيزنطيين حرصاً على حريتهم الدينية. وقد تأثر العرب المشركون بدين « موسى وعيسى» (ع). وكان للموسوية تأثيراً في التجارة والحضارة وكذلك المسيحية كانت ديناً رسمياً في المنطقة وكانت سائدة وبنت حضارة غنية وعريقة مايزال بعض اثارها الى الان.

كان العرب في شبه الجزيرة العربية على شكل قبائل بدائية تقوم على رابطة القربى فيما بينها وكان هذا هو التشكليل السياسي لديهم. حيث كان خمسة اسداس السكان من البدو الرحل، يشتغلون بالرعي وينقلون قطعانهم من مرعى الى مرعى حسب فصول السنة. وكانت تنشب بين هذه القبائل الحروب وتشتد العدواة فيما بينها. وبعدها حدث شيء من التقارب بزعامة قبيلة قريش التي كانت صاحبة نفوذ وجاه. فقد جمعهم الحج في مكة كل عام لعبادة الحجر الاسود في الكعبة باشراف القريشيين، وجمعتهم اسواق عكاظ السنوية، بجوار مكة، يبيعون فيها ويشترون، ويزوجون ويتزوجون، وينشدون ويستنشدون الشعر. وكان الشعراء يتبارون في عكاظ حتى اذا نالت قصيدة احدهم اعجاب الاكثرية علقت في الكعبة كما قيل، وسميت بالمعلقات. وبالشعر اخذت لهجات القبائل المختلفة تتقارب فيزول ماكان بينها من فوارق طفيفة وتنشأ منها اللغة العربية.

حياة محمد (ص) وسيرته:

ضمن هذه الظروف التي عاش فيها العرب ولد محمداً (ص) عام ٥٦٩م في مكة. وقد توفي والده قبل مولده بشهرين فكفله جده عبد المطلب. ولم يبلغ السادسة من عمره حتى قضت آمنة والدته نحبها، وبعد ذلك بسنتين توفي جده فكفله عمه ابو طالب ذلك الرجل الذي له علاقة بامور التجارة والسياسة في المنطقة. وعندما بلغ محمد (ص) الثانية عشر استعان

به عمه ابو طالب في تجارته واهتم به اهتماماً كبيراً ليعلمه. وفي الخامسة والعشرين من عمره تعرف على خديجة بنت خويلد، وكانت ارملة احد كبار التجار في مكة، فارسلته في تجارتها الى الشام، وهذا ساعده على معرفة الكثير من الثقافات. خصوصاً وان مكة كانت ملتقى تجاري للقوافل التي تقدم من الجزيرة وتذهب الى بلاد الشام ومصر. وبهذا تكون طريقاً مهماً لمرور الحضارات عبر الجزيرة العربية الى افريقيا واوروبا.

احبت خديجة محمد (ص) لامانته فخطبها له عمه ابو طالب وتزوجها. فما ان تزوج حتى اخذ يخلو بنفسه خارج مكة للتعبد والتأمل، حيث كان له تماس بالاديان اليهودية والمسيحية. كما كان يراقب تجارة اليهود عن قرب ويرى عدمية الانصاف فيها، واراد ان يسد الطريق امام هذه التجارة لان اليهود كانوا حاكمين بها. وكذلك المسيحية ورهبانها كانت لهم قوة من الناحية المادية كون الدولة كانت تساعدهم. وهذا يعنى ان هذين الدينين لا يقبلان محمد (ص) لانه كان ضد المصالح التجارية.

وفي تلك المرحلة كانت النبوة عادة. وبدون الانبياء لا يتم الانعطاف والتفكير في المجتمع. ولا يتم التفكير في حياة بدون دين. فالطليعة التي ظهرت على شكل الانبياء (اي نبؤة القبائل، نبؤة الاقوام، نبؤة البشرية)، هي التي ستحدث في المجتمع تحولاً وتطوراً نحو مرحلة جديدة. وظهور نبي للقبائل العربية المتخلفة كان لابد منه ليقودها ويحررها من ذلك التخلف. ومقابل ذلك يوجد للتجارة مكانة هامة، حيث في الصحراء توجد الفوضوية في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، ومن كل النواحي تعرض المصالح الى خطر، كل هذه خصائص مادية. ومقابل ذلك توجد الحضارة اليهودية والمسيحية وفي الجنوب توجد الحبشة وفي اليمن توجد تناقضات كثيرة في ممالك سبأ وحضرموت وحمير التي عظمت بتجارتها الواسعة. ضمن هذه الحقائق يتربى محمد(ص) ويرى تلك التناقضات كذلك يشهد بنفسه حضارة الاديان الاخرى. هكذا يظهر ويعلن عن نفسه نبياً وهو في الاربعين من عمره، ويدعوا قومه الى عبادة الله الواحد و« الاسلام » و يدعوهم للاقلاع عن عاداتهم السيئة. اما القبائل العربية باصنامها والهتها كانت تريد ان تبني سلطة لها. وكانت اوضاعها ضد النظام الذي يريد ان يشيده محمد (ص). كذلك قبيلة قريش والقبائل

الاخرى لم تكن تؤمن بفكرة محمد (ص) واغلقت هذه القبائل على نفسها بالهتها.

عارض محمد (ص)منذ المداية آلهة القبائل المتفرقة والمتشرذمة، كما كان يعارض وجود الامبراطورية الرومانية والساسانية، وهذا يدل على موقفه الثوري. كما كان باستطاعته الاستفادة من الاديان الاخرى(أي من جوانبها الايجابية)، ومقابل ذلك ليشمل في ايديولوجيته الاديان الانسانية، ويبنى على هذا الاساس نظاماً وحكماً جديداً. ويكون هذا النظام هو دينه الجديد (الاسلام) الذي يعادي ضد دين الدولة والظلم الذي كان موجوداً في بيئته وليحرر تلك القبائل من عبادة الاصنام. فاتخذ بذلك موقف واخذ يدعوا الى الاله الواحد وكانت هذه حاجة ضرورية له. في البداية لم يؤمن به سوى خديجة امراته وصديقه ابو بكر وابن عمه علي بن ابي طالب، اما قريش واقاربه فقد سخطوا عليه واضطهدوه لانه منع عبادة اصنامهم في مكة وشبه الجزيرة.

بعد ذلك آمن به العشرات من الشخصيات في مكة. مما ادى الى ازدياد اضطهاد قريش لمحمد (ص) وقرروا على قتله. بعدها طلب منه عمه ابو طالب ان يترك هذا الدين الا انه قال له :« والله ياعماه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على ان اترك هذا الامر لما تركته ». وهذا مايثبت اصراره على الدعوة. ومما ادى الى المؤامرة عليه عدة مرات وعلى اتباعه بالاضافة الى الظلم والقسوة. قرر محمد (ص) ان هاجر الى يثرب (المدينة) عام ٦٢٢م ، وذلك لينظم نفسه ويعد عدته ويدرب اتباعه ليكونوا اكثر استعداداً لمحاربة اعدائه. وعندما هاجر الى المدينة رحب به اهلها النصارى، بذلك قام بالتآلف بين النصارى والمهاجرين من المسلمين وكون بذلك قوة سياسية وعسكرية. ونظم شؤون اهل المدينة وما حولها، واصلح بين قبائلها المتخاصمة فالف بذلك دولة اسلامية صغيرة. ولاجل حمايتها شكل جيشاً لمقاتلة القريشيين، وبعد نحو سنتين من هجرته قاتل قافلة من القريشيين في غزوة (بدر) وانتصر فيها، الا ان القريشيين انتقموا في العام التالي فكانت معركة (احد) التي جرح فيها محمد (ص) وقتل الكثير من اتباعه. وفي سنة ٦٢٧ زحف اعدائه على المدينة فصدهم

المسلمون، اذ حفروا خندقاً حول المدينة ودعيت المعركة غزوة (الخندق).

لم يعلن محمد (ص) عن نفسه الهاً على الارض انما رسولاً لله وخاتماً للانبياء وعبداً من عباده الصالحين. وهذه حقيقة وتعتبر في جوهرها ثورة، لانه كان يوجد فراغ تاريخي في محيطه وبهذا استطاع سد ذلك الفراغ. فهذا انبعاث كبير للاسلام وخطوة في تاريخ البشرية التقدمي. كما انه يقوم بالسمو بالعرب حتى يخلصهم من انحطاطهم . الا انه لا يقع في الخطأ الذي وقع فيه الدين اليهودي ويظهر هذا في حديثه : « لا فرق بين عربي وعجمي الا بالتقوى والعمل الصالح ». كذلك يعلن عن السواسية بين الاقوام في دينه ويظهر هذا في حديثه « كلكم سواسية عند الله مثل اسنان المشط » فهذا يدل على اتساع دينه ليشمل جميع الشعوب والاقوام. وعظمته تكمن في القضاء على مفهوم القبيلة وتهديم جميع الاصنام. كما انه بدعوته هذه يؤثر على من حوله ويزداد اتباعه عدداً وعدةً، فلم يات عام ٦٣٠ حتى دخل محمد (ص) مكة ظافراً فحطم اصنامها ونشر دين الاسلام بين العرب. اذ عفا عن من اسلم من اعدائه وعامل الجميع بالحسنى، حتى الذين اضمروا له السوء ويحثهم على الاخوة والتقوى حيث يقول في حديثة: « لا تحاسدوا ولاتناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولايبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله اخواناً، المسلم اخ المسلم لايظلمه، ولايخذله، ولايكذبه ، ولايحقره»، التقوى هنا، ويشير الى صدره ثلاث مرات« بحسب امرئ من الشر ان يحقر اخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه ، وماله، وعرضه» ومن خلال هذا الحديث يبعد الانسان عن المساوئ والانحطاط ويحثه على التحرر والايمان. وبدخوله المكة يسلم ابو سفيان بعد عداوة طويلة ويقول بذلك: « من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ». كما ان هناك الكثير من الاحاديث والصور القرآنية التي تبين فيها جوانب ايديولوجية. فالقرآن الكتاب المقدس عند المسلمين، ليس كتاب دين فحسب، بل فيه شرائع الاسلام السياسية والاجتماعية والقضائية. وهذا الكتاب لاينقض توراة موسى (ع) وانجيل عيسى (ع) لانها جميعاً ذات خصوصية توحيدية في الاله.

بعد ان اصبح محمد (ص) سيد اكثر الجزيرة انتابته الحمى فتوفي سنة ٦٣٢م في مدينة (يثرب) بعد ان ترك للمسلمين ايديولوجية وبنا لهم مجتمعاً جديداً، اي ثورة وتحولاً اجتماعياً اكثر تطوراً من الاديان السابقة. ونرى في الايديولوجية الاسلامية التسامح وعدم الاكراه وكذلك المساواة مع الاديان الاخرى. وهذه الايديولوجية لم تبق في الجزيرة انما امتدت الى الاطراف الاخرى. وقبل ان يتوفي محمداً (ص) بعث برسائل الى ملوك العالم (ملك الروم وملك الساسانيين) يحثهم على قبول دينه ودعوته، وذلك باسلوب يتوافق مع وضع كل شخصية، ويقف ضد بطشهم في المنطقة ولايقبل ما يلحقونه بالشعوب من الظلم والطغيان. كما نرى ضمن هذه الايديولوجية عدم الاجبار على الدخول في الدين، ومن لا يريد ان يدخل في هذا الدين لا يجبر اذا بقى على دينه، وهذاما يظهر في قوله تعالى(لا اكراه في الدين). كما ينقد النبي ايضاً في الاية التالية «افا تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »؛ أي ان الله الذي يمثل الواحد الاحد في ايديولوجية الاسلام لايقبل دخول الاشخاص بالاكراه الى الدين الجديد. بعد ان قضى محمد (ص) نحبه خلفه الخلفاء الراشدين في ادارة شؤون المسلمين ومنهم (ابو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان، وعلي بن ابي طالب). وسموا بالراشدين لرشدهم على طريق الحق. ودامت خلافتهم الى ٦٦١م وكانت بذلك فترة وسيطة لتهدئة النفوس، علماً بانه قد حدثت الكثير من الارتدادات بعد موت محمد (ص). وقد قمعت هذه الردات قمعاً عن طريق حروب الردة في عهد ابو بكر. وتم توحيد الجزيرة ثم استمر المسلمون في التوسع والفتوحات في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وبذلك استولى المسلمين على دمشق عام ٦٣٥م ثم على القدس والمدائن عام ٦٣٧م وعلى فارس عام ٦٤١م. وفي عام ٦٥٦م تولى الخلافة علي بن ابي طالب الا انه لم يدم طويلاً في الخلافة فقتله الامويين عام ٦٦١ في الكوفة، وذلك في عهد معاوية بن ابي سفيان الذي كان والياً على دمشق سنة ٦٦٠ م. واستمرت الدولة الاموية حتى عام ٧٥٠م شهدت خلالها خلافات كثيرة وانحرف الاسلام عن جوهره الحقيقي. وبعدها جاء ابو العباس السفاح(لسفكه الدماء الكثيرة) واسس الدولة العباسية سنة ٧٥٠م. وشهدت تطوراً في جميع مجالات العلوم والاداب والفنون والعمران الا ان تسلل العناصر الطامعة في السلطة اليها، اضعفت من قواها وحاكميتها

ايضاً، وكثرت النعرات الطائفية والمذهبية فيها عام ١٢٥٨م. وبدخول المغول الى بغداد والاستيلاء عليها انتهت عهد الخلافة العباسية.

هكذا نرى ان الجوهر الطبقي ادى الى ظهور التناقضات بين المسلمين. والذين ارادوا ان يستفيدوا من تلك التناقضات هم انقاض المجتمع القديم، وتحت اسم الاسلام يريدون ان يمارسوا افعالهم ومصالحهم. وهناك الذين يريدون حماية الاسلام أي حماية الجوهر الثوري لخلاص البشرية، وهم مرتبطين بالعدالة ويعيشون في تناقضات مع الاخرين ويختلفون عن بعضهم. وبذلك يحدث بين الطرفين اشتباكات. ففي السلالة الاموية هناك من يريد ان يمثل المجتمع القديم، وهم يمثلون بذلك اليمين المتطرف في الاسلام من خلال انزوائهم الى منافعهم ومصالحهم وترك منافع الاسلام ، وباسلوب المؤامرة والفتن والكذب يضعون الاسلام تحت سيطرتهم. وبدأت اشتباكاتهم مع المدافعين عن الاسلام قبل ان يموت محمد (ص) وبعدها لم يتم وقف تلك الاشتباكات ودامت الى وقتنا الراهن. وهي تشكل انحرافاً عن الايديولوجية الاسلامية التي قادها محمد (ص). لقد تحولت الديانة الاسلامية في بداية ظهورها الى احد اهم عناصر القوة بين العرب تحت الاطار الاسلامي، الذي كان له اشد الاثر في ازالة عوامل التخلف والرجعية فيما بين العرب. وعلى الرغم من ان الديانة الاسلامية هي ديانة صحراوية الا انها اتت متماسكة مع ظروف العرب البدو المترحلين ووطنهم.

لقد اهتم الاسلام بصورة خاصة بتربية نفس الانسان، باعتباره عنصراً اساسياً في هذا التغيير المنشوء للمجتمع. وكما استطاع ان يعمل على استغلال المشاعر الكامنة في النفوس الانسانية للتحرر من العبودية وتسخيرها في الطريق الصحيح. حيث تجمعت كل الطبقات المسحوقة حولها مكونة بذلك قاعدة متينة، لان هذه الطبقات رأت فيها طريق الخلاص. كما استطاع الاسلام ان يدخل الاصلاحات في كافة نواحي الحياة العملية والروحية للمسلم. فقد نظم له اقتصاده ومنزله وعلمه كيف يتعامل مع الاخرين، ورفع من القيم المعنوية التي كانت قد تلاشت قبل الاسلام. ولرفع هذه الروح المعنوية هب المسلم للدفاع عن هذه المبادئ التي راى

فيها النور لاول مرة، ورفع راية الاسلام حتى وصل بها الى حدود الصين واوروبا.

بالاضافة الى ذلك نرى ضمن هذه الديانة الجوهر الديمقراطي الذي كان يفرض على المؤمنين، ويمتد هذا الجوهر الى عهد علي بن ابي طالب؛ حيث يتم انتخاب الخلفاء الراشدين جميعهم للخلافة كما توجه الانتقادات اليهم ان اخطأوا؛ فبمقدور كل مؤمن ان ينقد الخليفة اذا راى اخطاءه. ونرى هذا الجوهر من خلال مشاورتهم ببعضهم في الكثير من الامور، ويظهر ذلك في الآية التالية : (وشاورهم في الامر)، كذلك (امرهم شورى بينهم) وهذا يمثل اساس الديمقراطية. هكذا يتبين لنا بان الديانة الاسلامية ترتكز في اساسها على خليط من كل الاديان (الزردشتية واليهودية والمسيحية)، ومع تقرب وسطي لمظاهر الحياة المادية يمكننا ان نرى بان لتلك الاديان تأثيرات واضحة في تعاليم الدين الاسلامي. وتقوم هذه الديانة على الايمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر، كما انه يقوم على خمسة اركان هي:

١ ـ الشهادتان: اذ يشهد المؤمن (ان لا اله الا الله محمد رسول الله).

٢ ـ الصلاة ويؤديها المسلم ووجهه الى الكعبة خمس مرات كل يوم عند الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء.اما صلاة الجمعة فهي جماعية وتقام في المساجد والجوامع عند الظهر. و يعتبر هذا اليوم للملسمين بمثابة يوم السبت لليهود والاحد للمسيحين.

٣ ـ الزكاة: وهذا ما يقدمه المرء لذوي الحاجة « تزكية» لماله، اي تطهيره. ويتم اعطائها للفقراء والمحتاجين من المؤمنين، وللفقراء بعض الحق في مال الاغنياء.

٤ ـ الصوم: صوم شهر رمضان؛ وهو الشهر الذي ينقطع فيه المؤمن عن تناول الطعام والشراب من الفجر الى المغرب. وذلك لتربية النفس وتقوية الارادة. وهي فرض من فروض الولاء والترفع عن الماديات، ويبرهن فيه المسلم بانه مستعد للانقطاع عن شهواته لله.

٥ ـ الحج او زيارة البيت الحرام، ولو مرة في العمر من استطاع اليه سبيلا. وفتح طريق المؤمن للغفران وعدم اليأس. وتجمع شعوب مختلفة في ذلك المكان دالاً على وحدة الشعوب المؤمنة.

لقد اصبحت هذه الاركان الخمسة اساساً بنى عليها البيت الاسلامي كل معتقداته. حيث وضعت للمسلم حدوداً يبتدء منها معرفته ويستند اليها في بحثه لايجاد الحلول.

اذاً فهذه الايديولوجية بقيادتها ومناضليها وصلت الى مستوى اصبحت قوة لا يتم انحلالها. ويتم رؤية ذلك من خلال الفتوحات وسيطرتها على اكبر امبراطوريتين في المنطقة (البيزنطية والساسانية)، وبذلك لم يشهد التاريخ سرعة مثل انتشار الدين الاسلامي. وظهر دور الايمان والروح العسكرية في تطورها وتقدمها، الذي تم من خلال الحروب الكثيرة. وبذلك شكل اساساً لبناء الامة الاسلامية. كما شهد الاسلام تطوراً من النواحي العلمية ايضاً؛ حيث يتم تطور العلوم والفنون والاداب والاخلاق والعمران والطب والفلسفة.

بتطور المجتمع الاسلامي يسود بينهم التفرقة وبالاخص من جانب أولئك الذين يريدون بناء دولة لهم، وهم الطامعون في الخلافة والمتمسكين بمصالحهم. وبذلك يحرفون الاسلام عن جوهره الحقيقي، ويتنكرون لمبادئه الاساسية. ويزداد الظلم والطغيان والسيطرة بالضغط على الشعوب التي لاتدخل تحت لوائها. بذلك ينقسم الاسلام الى مذاهب وطوائف كثيرة لايقل عددها أو شدة اختلافاتها عن الشيع المسيحية(أي الانقسام في المذاهب). ومن هذه الشيع في الاسلام: **الخوارج** ذو النزعة الحربية المتزمتة. **والمرجئة** التي تعتقد ان المسلم لايقضى عليه بالعذاب الدائم في الدار الاخرة. **والجبرية** التي تنكر حرية الارادة، **والقدرية** التي تؤمن بحرية الارادة وتدافع عنها. كذلك ظهرت المذاهب نتيجة للفروق الطبقية وكانت بمثابة اصلاح في الاسلام، على اساس مصلحة الفئات التي تمثلها. ومن هذه المذاهب التي نشأت في البلاد الاسلامية السنية اربعة مذاهب وهي:

١ـ مذهب ابي حنيفة ابن ثابت (المذهب الحنفي): احدث هذا المذهب انقلاباً في الشريعة الاسلامية. ويرى ان القانون الذي سن في اول الامر لاهل الصحراء، يجب ان يؤخذ بحرفيته وبروحه اذا ما رغب تطبيقه على مجتمع صناعي او حضري.

٢ ـ المذهب الشافعي (محمد الشافعي): يقول ان الاجماع في كل البلاد الاسلامية هو المحل للشرائع والسنّة الحقيقية.

٣ ـ المذهب المالكي(مالك بن انس): ويقول ان اجماع اهل المدينة هو الذي يجب ان يكون اساس التشريع.

٤ ـ المذهب الحنبلي(احمد بن حنبل): ويقول القرآن والحديث وحدهما يجب ان يكونا اساس التشريع.

تؤمن هذه المذاهب كلها بان الشريعة الاسلامية من عند الله، وبان كل شريعة خليقة بان يحكمها الجنس البشري الذي لايخضع بفطرته للقانون، ويجب ان تكون اصولها منزلة من عند الله. ورغم الاتفاق في المبدأ، الا انها تختلف في التفاصيل وذلك بسبب الجدل الطويل فيما بينها على مرّ الزمن. كما ظهر في المذهب السني طرائق عديدة مثل النقشبندية، المحمودية، السليمانية ، الداوودية، الادريسية، القادرية وغيرها الكثير وكل هذه الطرائق لاتهدف الا الى النزاعات الدينية والتفرقة. وسبب ظهورها هي المنطقة التي ظهرت فيها، وتفسر الدين حسب ما يتطلب مصالحها ووضعها الاجتماعي.

اما المذهب الشيعي فهؤلاء قضوا على الخلافة الاموية واستولوا على بلاد الفرس ومصر والهند. ونشأت هذه الطائفة على اثر مقتل علي وولده الحسين واسرته. فقد قالت فئة قليلة من المسلمين ان الله عندما اختار محمد (ص) نبياً له ورسولاً، اراد من غير شك ان يكون ابناءه الذين ورثوا بعض فضائله واغراضه الروحية، هم الوارثين لزعامة الاسلام. لهذا فهم يرون جميع الخلفاء مغتصبون لاحق لهم في الخلافة ماعدا علياً . وهم يرون علي والحسين من اولياء الله الصالحين. ولعل طائفة الشعية قد تاثرت بعقيدة الفرس واليهود والمسيحيين الخاصة بالمسيح المنتظر. فلدى

الشيعة هناك المهدي المنتظر، وهو الامام الثاني عشر الذي يعيد لهم السلطان والسعادة.

لقد استطاع محمد (ص) ان يجعل الاسلام ايديولوجية جمع عليها العرب، ووحدهم تحت لوائها، وانطلق بهم الى ان وصلت الى مصاف الامم. وتحمل ايديولوجيته هذه في جوهرها مبادئ كثيرة مثل المساواة والعدل والامر بالمعروف والتسامح وكل القيم الخيرة والاحسان وغيرها الكثير من الصفات الانسانية. كذلك اعطى اهمية للعلم و يظهر هذا في الحديث التالي: «اطلبوا العلم ولو كان في الصين». كذلك لايسمح بالاختلاف بين الامم كما في الاية التالية: «يا ايها الذين آمنوا انا خلقناكم ذكراً وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتتعارفوا، ان اكرمكم عند الله اتقاكم». ومن خلال الاحاديث فسر محمد (ص) جوهر القرآن بشكل يستطيع فيه تنظيم حياة المجتمع من جميع النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والقضائية والتشريعية. يكون بذلك مصدراً من مصادر التاثير العقائدي الايديولوجي على المجتمع.

ويقول القائد عبد الله اوج آلان بصدد الاسلام: « اذاً فالاسلام هو ثورة من اكبر الثورات التي عرفت في التاريخ. ونستطيع القول بانه لم تظهر ثورة مثل الثورة الاسلامية من ناحية التعمق في معنى الانسانية. وقبلت الثورة الاسلامية على جميع ساحات الحياة بشكل واقعي المساواة والعدالة، والمعنى الذي اعطتها لمبدأ الحرية، لم يعطيه اي دين آخر. لذلك نستطيع اعتبار الثورة الاسلامية منبعاً واساساً للثورات التي تلتها. هذه الثورة هي في اساسها ثورة العدالة والمساواة والحرية، لكن مع الاسف تتحول الاسلام الى ايديولوجية في ايدي الطبقات الحاكمة وادخالها في خدمة مصالحهم الطبقية واستخدامها كثورة مضادة ضدّ الثورات، واستخدامها باسلوب العبودية واللا عدالة، والظلم والانكار والظلام، كل هذه الامور ارتكبت باسم الاسلام مما ادى الى الحاق السوء بالاسلام وبثوريته».

د ـ النتائج التي ترتبت على الغنى الثقافي والديني في المنطقة من الجوانب الايديولوجية والسياسية والاجتماعية.

مثلما ذكرنا سابقاً وتوضح لنا ان الغنى الثقافي والديني الذي تشكل في المنطقة اعطى اهمية بالغة ومتعددة الابعاد. كذلك منح لها دوراً تاريخياً واستراتيجياً، وجسد هذا الدور في مركزيتها وطليعتها، وقد ظهر هذا الدور المركزي الطليعي على جميع المستويات ولاسيما المستوى الايديولوجي والسياسي والاجتماعي. طبعاً ان هذه الجوانب اخذت شكل البنية الفوقية للمجتمع في المنطقة، أي اخذت شكلها بناءاً على المعطيات المادية في اطار نظم اقتصادية محدودة. لذلك فان لظهور أي دين من الاديان اسس مادية معينة، تتكّون وتتطور كأحد اشكال الوعي الاجتماعي. وقد ترافق ظهورها مع اتسامها بخصوصيات ثورية اجتماعية شاملة. بمعنى اضعاف واسقاط النظام السائد، المتخلف اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، وبناء نظام جديد وترسيخه على كافة الاصعدة . ومما لاشك فيه ان مطلقية الشرائع والقوانين الموجودة في الشرائع والاديان، ادت الى عدم تطور الانظمة التي اتخذتها هذه الاديان كايديولوجيات ارتكازية تقوم على اساسها. حيث تحول هذه الانظمة تلك الافكار الدينية والشرائع الى قوالب جامدة لا تقبل التطور والاصلاح، وبذلك تفقد ديناميكيتها الاجتماعية، ويفقد الدين ديناميكيته الحياتية نظراً لانه كان ممثلاً للحلول في المجتمع لجميع تناقضاته و تفاصيله، وفي النهاية يصل الدين الى مرحلة الانسداد والانغلاق. ويؤدي هذا بدوره الى الانحطاط والاضمحلال فتخلق الظروف المناسبة لولادة دين آخر او ايديولوجية اخرى على شكل ثورة اجتماعية اكثر تقدماً وتطوراً. وهكذا توالت الاديان متسلسلة ومتعاقبة، وبشكل اكثر تقدماً من سابقها.

ومن جانب اخر فان العلاقات الانتاجية التي تتعمق وتتجذر اثناء ترسيخ الثورة لاساسياتها ضمن المجتمع تتسم بالتقدمية، وتطور وسائل الانتاج. و مع تزايد الاحتياجات المادية والروحية فان هذه العلاقات التي تبدو ثابتة و مطلقة، تصبح عقبة امام تطور وسائل الانتاج بصورة اوسع. وهذا بدوره يسد ابواب التطور والتقدم في وجه المجتمع ويكسبه حالة من الثبات والجمود. ويجعل من انظمتها الايديولوجية والسياسية والاجتماعية تدور في دائرة مغلقة. فمن اجل التوصل الى فهم اكثر لماهية هذه الانظمة وخصوصياتها وبنيتها، ينبغي تحليلها مع توضيح كافي لمستوياتها وكيفية ترسيخها داخل المجتمع وفي كل الاتجاهات.

ظهرت اغلب الاديان في الشرق الاوسط (اليهودية ـ المسيحية ، الاسلام بصورة خاصة) كايديولوجية غالبة للطبقات الجديدة، وترسخت وانتشرت في كافة ارجاء المجتمعات منذ البداية، على اساس ايديولوجي فكري، ثم تحولت الى سياسات اجتماعية عامة. فتحول الاديان الى ايديولوجية عامة ولاسيما حينما تدخل هذه الايديولوجية مرحلة التسلط، هو من اهم النقاط التي يجب التركيز عليها، لان هذه الايديولوجيات تحولت بهم الى مؤسسات واجهزة، أي خلقت لها مؤسسات كانت تقوم بوظيفة التوقف على الشؤون الايديولوجية في كل النواحي. وكان من اهم وظائف هذه المؤسسات الايديولوجية هي تحويل (المبادئ) الى مفاهيم، سياسية اجتماعية...الخ. ومن خلال هذه المفاهيم تحدد وتعين العلاقات والسلوك الانساني داخل المجتمع. ومن امثلة هذه المؤسسات: مؤسسة (البير) في الديانة الزردشتية، ومكان اقامته(أتشكه خانة)، ومؤسسة الحاخامات في الديانة اليهودية ومكان اقامتهم (سيناكوك)، وحواري عيسى في بداية ظهور المسيحية، والبابا والاسقف في ايامنا هذه ومكان اقامتهم هو الكنيسة. اما في الاسلام، وفي عصر صدر الاسلام كان العشرة المبشرين بالجنة هم الذين قاموا بهذا الدور، وامتدت هذه الادوار حتى شملت الامام من المذهب الشيعي، و علماء الكلام في (الالهيات) وبعض أئمة الفقه في المذهب السني. وعلى الرغم من اختلاف اماكن اقامتهم فمازال الجامع والحوزات العلمية هو الموقع الاساسي لهم. كما تضطلع مؤسسة آية الله بهذا الدور في الوقت الحاضر. علماً بان الانبياء والرسل كانوا المؤسسة الايديولوجية لهذه الاديان. اما بعد مماتهم قامت هذه المؤسسات بدور رئيسي في متابعة نهجهم الايديولوجي. ومن اهم وظائف هذه المؤسسات هي: تحويل المبادئ الدينية الى مفاهيم سياسية واجتماعية واقتصادية، مثل العدالة التي يقابلها الظلم والجور، والاخوة التي تقابلها الفتنة والعداوة، المساواة وتقابلها التفرقة، الخير ويقابلها الشر، حتى اصبحت هذه المفاهيم جزءاً من الثقافة العامة والاعراف الاجتماعية. كذلك كانت هذه المؤسسات تقوم بدور نشر وترسيخ وتوسيع وتوضيح هذه الايديولوجيات داخل المجتمع لانشاء دعائم السلطة.

ومن ناحية اخرى عندما يتحول الدين الى ايديولوجية او شكل من اشكال الوعي الاجتماعي يتخذ كشكل مبادئ وعلاقات متبادلة تربط مابين

الانسان وربه، الانسان واخيه الانسان، الانسان والمجتمع ، الانسان والطبيعة...الخ. وتعتبر هذه التحديدات من اهم وظائف الدين وذلك من خلال التحديدات التي طبقتها كل الايديولوجيات الدينية لراعيها والمؤمنين بها، وتوجد شروط واركان لهذه العلاقات مع غاياتها.

ان اغلب الاديان عندما تصبح كايديولوجية للمجتمع وصيغة للسلطة، تقوم بتوجيه الانسان سواء في السلطة اوالمجتمع نحو الغايات الدنيوية والاخروية. ومن هذه الغايات الحفاظ على الدين والنفس والعقل والملك والعرض. بالتالي تهدي المؤمنين بها الى الطريق الذي من خلاله تحافظ وتدافع عن هذه الغايات، اوما يسمى بالمقدسات. كذلك ترسم خطاً قاطعاً بين الحلال والحرام ، والحسن والسيء ، كقول زردشت: «التفكير الصائب، والقول الحسن، والعمل الصالح ». أو الوصايا العشر الموسوية، وكقول المسيح: «سمعت انه قيل العين بالعين والسن بالسن، اما انا فاقول لكم لاتقاوموا الشر بمثله بل من لطمك على خدك الايمن فادر له الخد الاخر». اضافة الى عشرات الايات القرآنية والاحاديث التي تحدد بموجبها الحلال والحرام واسلوب الفصل بينهما. ان الاطار الذي ترسمه هذه الايديولوجيات الدينية للانسان، لحقوقه وواجباته امام نفسه وربه والجماعة التي يعيش ضمنها، والطبيعة التي يتعامل معها، تشكل أو تصبغ المجتمع ايضاً، واطر سلوكه وغاياته. ثم يقوم المجتمع بتأطير الايديولوجية التي يسلكها ويحدد مقوماتها الاجتماعية و السياسية والاقتصادية. فالمجتمع اذا هو ذلك الاناء الذي ترسم شكله الايديولوجية الجديدة وتضفي عليه معالمها، وتعطيه آفاقها المستقبلية على هذا الاساس وبالاستناد على جهازها الايديولوجي واساليبها تثبت الايديولوجية المفاهيم السياسية وكيفية ممارستها. وبتعبير اخر تحدد العلاقة بين الدين والسلطة، وكذلك حقوق وواجبات السلطة تجاه الانسان والمجتمع، واساليب ادارة السلطة وكيفية الوصول اليها...الخ. فمثلاً حدد الاسلام مفهوم السلطة العادلة من خلال تطبيق مبدأ الشورى « وامرهم الشورى بينهم »، حيث يمثل هذا المفهوم في جوهره احد اساليب الممارسة الديمقراطية، لاعتماده على الاستشارة و الانتخاب، ولاعطائه دوراً للرعية (عامة الشعب) في استخدام هذه الالهة.

وفي اطار هذه المسألة يجب ان نشير هنا الى نقطة، وهي ان المذاهب التي تفرعت عن هذه الاديان ـ ولاسيما المسيحية والاسلام ـ لها وجهات نظر مختلفة حول من هو اهل للسلطة بعد الرسول أي من هو اجدر بالخلافة. حيت قال في المذهب الشيعي بصحة الاهلية لآل بيت الرسول باعتبارهم مطهرين من الرجس ونسب العصمة اليهم تتحقق فيهم شرط الخلافة. اما المذهب السني فقد ردها الى المؤمن العاقل البالغ العادل وصاحب الحكمة. كذلك بالنسبة لغاية السلطة يرى الامام علي (رض)، ان السلطة وسيلة لارساء المعالم الدينية كغاية عليا. اما معاوية وابنه يزيد فقد حولوا الدين الى وسيلة للوصول والحفاظ على السلطة ومن ثم التوسع بها. ولقد ظهر هذا الخلاف في وجهات النظر في الديانات الاخرى ايضاً، ففي الديانة المسيحية بمذهبيها الكاثوليكي والبروتستانتي حيث كانت الكنيسة هي موقع الاختلاف. ففي الوقت الذي ترى فيه الكنيسة الكاثوليكية السلطة الالهية المطلقة والسلطة الوضعية يجب ان تكون تحت سيطرتها واشخاصها في المجتمع. نجد بان المذهب البروتستانتي يفضل فصل الدين عن الدولة من خلال مبدأ الاصلاح الاجتماعي، اي تحرر السلطة من هيمنة الكنيسة من خلال تعريفها للدين بانه علاقة مابين الانسان وربه فقط.

وبطبيعة الحال فان هذه المفاهيم الدينية والمذهبية اطّرت واعطت معالم السلطة السياسية، واعطت ثمارها الايجابية والسلبية؛ أي مثلما اصبحت ارضية التطور لمجتمعات الشرق الاوسطية في مراحلها التاريخية، بنفس المقدار الذي ادت به الى نشوء صراعات سياسية وحروب طاحنة بين تابعي هذه الاديان والمذاهب، وبالتالي ساهمت في عرقلة التقدم والتطور. لان تغلغل الدين في المجالات السياسية أو بتعبير اخر تسييس الدين ادى الى تطور العنف والقمع والاستبداد بين المجتمعات أو داخل المجتمع الواحد. كذلك غلبت الجوانب الرجعية للدين على السياسة وبالتالي اصطباغها (أي السياسة) بمطلقيات الدين. وتخضع الدين ايضاً لخدمة مصالح ومنافع الطبقات المتنازعة التي تمثل الطبقات المتفرقة في الدين الواحد، ليصبح بهذا وسيلة في يد الدولة (السلطة)، او القوة التي تهدف الوصول الى السلطة. والشيء الاهم من هذه التراكمات كلها هو ان الصراعات السياسية ذات الصبغة الدينية والمذهبية تتجه في النهاية الى

اتجاهات عكسية وسلبية، اي تقود المجتمع الى التخلف ، وتعرقل تطوره ونموه. وفي النتيجة تكسر ديناميكية هذا التطور لتنزوي في حالة من الانغلاق والانسداد. لكن بالرغم من كل ذلك تعتبر تجارب السلطة السياسية والدينية في الشرق الاوسط تجاربا غنية، وذات قيمة تاريخية، وهذا بحد ذاته ناتج من الغنى الثقافي والديني في المنطقة. اضافةالى فضلها في تكوين العلوم السياسية وتطويرها، واضافة الى انه ومن خلال توصل هذه السلطات الى مستويات تنظيمية وسياسية تكون لديهم وعي سياسي وثقافة سياسية غنية، متوحدة بصورة حرة.

اما الجانب الاجتماعي فانه مما لاشك فيه من ان التحول الاجتماعي والارتقاء به في اوائل مراحل تكون المجتمعات (الجماعات البشرية)، اي تحول الكائن الانساني الى كائن اجتماعي منتج وذو نزعات عقلانية، كان للدين او للافكار والشعائر الدينية دور رئيسي فيه. فكل دين او مذهب ديني يتجذر في البيئة الاجتماعية (البناء الاجتماعي) بشكل من الاشكال، فيتطور بموجبه وكل حسب مفاهيمه الايديولوجية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، نظاماً اجتماعياً يساعد على ارساء هذا المذهب في المجتمع ليصبح نظاماً اجتماعياً متكلاملاً. وقد تحقق هذا بلاشك من خلال ما اضطلعت به الاديان من دور ريادي. وهي في نفس الوقت علة ظهورها ايضاً. وعلى هذا الاساس يمكننا القول بان ظهور كل دين هو تطوير لمستوى الدين الذي قبله، وتطوير لمستوى المجتمع الذي وصل اليه. وبتوالي الاديان وتعاقبها نتج الارتقاء الديني الى هذا المستوى من التطور والتعقد الذي نراه في الوقت الحاضر.

لقد تحققت هذه التحولات من خلال التشريعات والقوانين الوضعية الثابتة التي ادعت انها موحاة من الله الى الانسان. ومن اهم الشؤون التي عالجتها الاديان والمذاهب في تشريعاتها. علاقة الرجل بالمرأة، علاقة الفرد بالمجتمع، الميراث، البيع والشراء، التجارة، واجبات الاغنياء تجاه الفقراء، المسائل الاخلاقية، حقوق التملك، ومعايير السلوك الحسن والسيء، الجميل والرديء، الحلال و الحرام...الخ. فوصلت هذه التشريعات الى ابسط وادق تفاصيل الحياة، وحيث شرحت حتى أداب الاكل والشرب، القيام والجلوس، وكذلك آداب السفر والزيارة والملابس

وحتى شعائر الدفن.. الخ. فقد عالجت الاديان والمذاهب هذه المسائل الاجتماعية وكل حسب نظرته الى الانسان والمجتمع و للغايات التي خلق الانسان من اجلها، ووضعتها امام الانسان في الحياة والدنيا، وبموجب هذه النظرة ايضاً تم التشريع وسن القوانين. وبذلك يؤطر النظام اجتماعياً باطار غير قابل للتغيير، لان كل تشريعاته وقوانينه هي بالضرورة قوالب جامدة موحاة من قوى غيبية الى رسل او انبياء او اولياء على الارض. وبانقطاع هذا الوحي او المصدر تنقطع الرابطة الفاعلة وذات الصلاحية في التغيير.

من خلال تقييمنا للنظم الايديولوجية والسياسية والاجتماعية للاديان، نستنتج ان لكل دين او مذهب ديني انظمته الخاصة به والتي تتفاوت فيما بينها. واذا قمنا باستعراض جميع الاديان والمذاهب والطرق والطوائف التي ظهرت منذ نشوء الوعي الديني في المنطقة، لتبين لنا مستوى الغنى الثقافي وعمقه التاريخي ومقدار تجذره في شخصية الفرد والمجتمع. وهذا الغنى الثقافي بجانبيه المادي والروحي، وباطاريّه النظري والعملي لم يقتصر على صعيد اجتماعي معين، بل شمل كل الاصعدة والمستويات الفكرية والاجتماعية. هذا الغنى اعطى بدوره قوة كبيرة للشعوب والمجتمعات عبر تاريخها العريق. وتمكنت المجتمعات بهذه القوة من مقاومة الحملات الخارجية التي كانت تستهدفها، محافظة بذلك على نفسها. وكان الغنى الثقافي هو السبب الرئيسي في رفضها التيارات الثقافية الخارجية والغريب عن تياراتها الفكرية. وكان ايضاً سبباً في عدم استسلام شعوبها، ومقاومتها للقوى الخارجية.

لكن بالرغم من هذه الحقيقة، فان هذا لايعني انها لم تعطي الفرصة لهذه التدخلات بل على العكس من ذلك. فان التفاوت الثقافي كان سبباً في الصراع والحروب الطاحنة التي بدورها كونت ارضية خصبة للتدخلات الخارجية، وفتحت ابواب المنطقة على مصراعيها لكافة التدخلات الاستعمارية، والتي مارست ابشع السياسات في المنطقة برفعها شعار (فرق تسد). وبقدر مانؤكد على نقاط الغنى الثقافي في المنطقة علينا ان لانتناسى نقاط الضعف التي نذكر منها مايلي:

١ ـ تمتعت كل امة وشعب وجماعة وطائفة بمقدار من الثقافة الخاصة بها. في نفس الوقت كانت هذه الثقافة جزء من الثقافة العامة المشتركة المتكونة لتحاور هذه الثقافات مع بعضها البعض عبر العصور. هذه الثقافة هي ما يصطلح عليها الان بالثقافة الشرق الاوسطية التي توالت عن طريق العلاقات والاحتكاكات التي حدثت فيما بينها.

لقد اصيبت هذه العلاقات وخصوصاً في القرون الخمسة الاخيرة ببعض الضعف او تلاشت بشكل تام نتيجة الصراعات والتناحرات التي حدثت في المنطقة، والتي انعكست سلباً على الواقع الملموس والمعاش، لان قوة هذه العلاقات كانت تعتبر من اهم الدوافع الاساسية التي تدفع بهذه الثقافة المشتركة العامة الى مراحل التطور والتنوع والغنى. وقد اوصلت هذه الثقافات بالمجتمع ـ وعن طريق اشتراكها في ثقافة عامة ـ الى الوحدة الفكرية في التطور والاهداف، وبالتالي فانها تضع الارضية المناسبة لظهور مفهوم المصير المشترك، والذي هو تجسيد لوحدة هذه المفاهيم. لكن بحدوث بعض الشروخ في طبيعة هذه العلاقات، فان هذه الثقافة المشتركة قد اصيبت بالضرر البالغ والضعف والوهن الشديدين. حتى ان الجماعات المتفرقة لم تتمكن نتيجة هذه الصراعات من حماية حتى نفسها. ومن ناحية اخرى فان ظهور هذه الصراعات التي اتخذت طابع العنف الشديد في الكثير من الاحيان، نظراً للتعصب المذهبي والتداخل الخارجية ادت بالمنطقة للولوج الى طريق اللاحل والانغلاق الفكري والتخلف الحضاري... واحداث القرون الخمسة الاخيرة خير مثال على ذلك.

٢ ـ بقدر ما حاولت هذه الشعوب من حماية نفسها عن طريق رد الثقافات الخارجية الدخيلة على مجتمعاتها، اغلقت في نفس الوقت على هذه المجتمعات ابواب التقدم والازدهار، وبالتالي فان هذا الانغلاق اصبح عنصراً اساسياً في تخلف المنطقة وتاخير ثقافاتها نتيجة لعدم اعطاء الفرصة للتحاور بين هذه الثقافات والثقافات الخارجية. مما صبغت الثقافة الشرق الاوسطية بطابع التخلف، وجعل منطقة الشرق الاوسط تصبح قلعة حصينة لهذا التخلف والرجعية، الذي هو سبب اساسي في عدم تمكن المفاهيم الديمقراطية ترسيخ دعائمها في الشرق الاوسط، اضافة الى فتح

الابواب لكافة انواع التدخلات الخارجية. لقد نتج عن هذا تخريبات كبيرة تعاظمت يوماً بعد يوم وخصوصاً في القرن السادس عشر الميلادي حيث سحب الشرق الاوسط الى دهاليز التخلف والظلمة، مع رد ديناميكية التطور الاجتماعي العام الذي فقد بصورة تامة في هذه المنطقة مفسحة الطريق الى اللاحل. الذي اصبح نمطاً ثابتاً للحياة في المنطقة. لذا يمكننا القول ان تاخر الوعي الديني بقوالبه الثابتة افقدت المنطقة العناصر والخصائص الاساسية لهذا الغنى الثقافي عن طريق الانقطاع عن كل التطورات الخارجية، مما ادى بالمنطقة للدخول الى عصور مظلمة، والذي بطبيعة الحال لا يليق بهذه الامم ولا بتاريخها العريق الطويل الذي جعلها في يوم من الايام في مصافي الحضارات، بل وفي طليعتها.

هـ ـ تأثير الدين على انسان الشرق الاوسط:

ان الدين هو احد اقدم اشكال الوعي الاجتماعي الذي ظهر منذ العصور القديمة، ويدل الدين في جوهره على الارتباط القائم بين الانسان والمطلق أي بين الانسان والعالم الغيبي عامة. وعند الحديث عن تأثير هذه الديانات على انسان الشرق الاوسط يجب اخذ عناصر الدين تعبير بعين الاعتبار، حيث المكونات الاساسية التي تؤثر تأثيراً مباشراً على هذا الانسان، وهذه العناصر هي:

١ـ الافكار والعقائد الدينية.

٢ ـ المشاعر والاحاسيس الدينية.

٣ـ الطقوس الدينية والعبادات.

لقد كان الدين ومنذ بدايته ذو خواص انطباعية. حيث ان الدين كان عنصراً فعالاً في التأثير على المجتمعات البشرية، وباشكال مختلف

بحسب طبيعة هذه الديانة أو تلك. فالجانب المهم من الدين هو جانبه النظري (الغيبي) اي مجموعة التطورات عن الالهة والملائكة والشيطان...الخ، وعن الحياة الاخرى والعوالم الاخرى، وغيرها من التصورات التي تدخل كأساس في التكوينات المعنوية للانسان على انها مسلمات. وبالتالي تصبح جزءاً من تفكيراته العامة، ومن خطوطه الفكرية التي لاتقبل الجدل.

لقد سعى علم اللاهوت -THEOLAGY من اليونانيةTHEOS بمعنى الاله وLOGOS الذي يعني العلم أو البحث - الى التنسيق بين هذه الافكار والشكل المادي، وبالتالي تصبح قيم يمكن للانسان ان يجعلها كمقاييس يقيس به كافة نشاطاته الواعية، والهادفة، وتصبح ايديولوجية له. وهذه الايديولوجية ذات انماط وطراز تتخذ نفس الصبغة، وتتغير بموجبها مع اختلاف هذه الديانة او تلك. ان الايمان بالعالم الاخر، وبالقوى الغيبية يشكل نواة الدين وجوهره. ففي الوعي الديني يبدو العالم وكأنه اصبح عالمين، أولهما محسوس منظور، مادي، والاخر غير محسوس وغير منظور، لكنه يسيطر على هذا الواقع المادي، ويتحكم في انماط علاقاته ويقومها على اساسه. وتذهب اغلبية المنظمات اللاهوتية في تفسيرها لجوهر الوجود، على ان هناك قوة اولية كبداية للوجود، هذه القوة هي قوة خالقة بذاتها غير متولدة من شيء اخر، بل تقتصر فيها هذه الخاصية باعتبارها هي المبدع. وهي التي ترسم قوانين الوجود عامة ومهام الانسان بكل اشكالها. اي هي التي تحدد السبيل والغاية بموجب قوانين خاصة بها. وفي كثير من الاحيان تكتسب هذه القوانين شرعيتها من الاله ذاته، باعتباره هو القوة المخولة لسن هذه القوانين.

هنا يجب الاخذ بعين الاعتبار الانظمة التي استخدمت هذه الديانات لدعم سلطتها ولجعلها مرتكز من مرتكزاتها، التي تستند عليها في العالم المادي ذات اساسات الهية وبالتالي ازلية خالقة ومبدعة وذات حق مطلق. ويمكن اخذ مثال على ذلك في الحضارة الاشورية، حيث ظهرت صورة الملك سنحاريب والاله اشور على الاختام والمنحوتات الاشورية وكلاهما يرتديان رداءً متشابهاً ويتخذان وضعية متشابهة. اما في الحضارة البابلية فميكن ان نلاحظ في مسلة حمورابي وفي اعلى المسلة

كيف ان الاله شمش يعطي نسخة القوانين لحمورابي، وهذه القوانين هي التي نسخت في المسلة. اي ان القوانين هنا اعطيت قوة الهية دينية. وبما ان الدين هو اقدم اشكال الوعي الاجتماعي كما نوهنا سابقاً، اذ ان الايديولوجيات السائدة كلها كانت ذات طابع ديني. وبهذا اسبغت الاديان على العالم الطبيعي المادي صفة الغيبية حتى على العلاقات الاقتصادية والسياسية. حيث ان الكوارث لاتحل الا بغضب احد الالهة. كذلك النصر لايتم الى بنصرة احد الالهة. وبذلك اصبحت الالهة ممتلكة لكافة القدرات. فهو الحاكم المطلق. وقد يحدث احياناً ان يتدخل بعض الالهة الثانويين في عمل الالهة الاكبر. ولكن يبقى لعمل الالهة الاكبر صفة التخصص والتأثير العام للعمل، وحتى على الالهة الاخرين. وبناء على هذه المطلقية التي اضفاها البشر على اعمال الاله الواحد او مجموعة الالهة التي لم تكن تمثل بطبيعة الحال الا احد اوجه هذا الاله او تجسيد لاحد صفاته، فقد خرجت هذه العلاقات و الروابط عن الاشراف الواعي للانسان، وبالتالي فهي تسير بموجب ما اقره الاله ذاته بموجب هذه الارادة المطلقة التي تحرم المناقشة في ماهيتها. وهذا ماجسدته منظومات التطورات الدينية حيث اتصفت بمايلي:

١ـ الغيبية في عكس العالم الواقعي.

٢ ـ القول بعجز الانسان في مجابهة سيطرة المحيط الموضوعي.

هذه المؤاشرات تشكل جوهر الدين وتميزه عن الرؤيا العلمية، حيث تعتمد الرؤيا العلمية على التحليلات المادية الموضوعية، وعن كشف العلاقات مابين هذه المواد، موضوع البحث. وهذا الوضع والشعور كان تربة خصبة لنمو نوع من المعرفة الغيبيةـ الضمنية. حيث ارتبطت هذه القوى المطلقة بشيء مادي ما(حجر أوخشب..الخ). وبموجب هذا الاعتقاد كان التصور الشائع بان قطعة الخشب هذه او الحجر هي مكان حلول الالهة او انسب مكان يمكن ان يكون فيه هذا الاله. وهكذا تكتسب قطعة الحجر هذه نفس الخواص الالهية، لهذا كانت تقديم القرابين لهذه القطع باعتبارها مصدر للقوة والخير وكذلك مصدر الشر والدمار.

لقد ترسخ مفهوم القدر منذ الفترات الاولى للانسان. وباعتبار ان الخالق الاول هو صاحب الحق في تقرير مهمة الانسان ومصيره، حيث

حاول الانسان ان يتقرب الى هذه الالهة ببعض القوانين او ببعض التعاويذ التي كانت تمنع آلهة الشر من الحلول في الاماكن الغير مرغوب فيها، او حتى لاخراج هذه الارواح أو الالهة من اجساد المصابين ببعض الامراض ويمكننا هنا ادراج مثال على الحضارة الفرعونية، حيث كانت ترافق عملية الدفن (بعد التحنيط) تلاوة بعض التعاويذ السحرية من كتاب "المعنى"، اضافة الى بعض التماتم التي كانت توضع مع الميت في تابوته لطرد المتسللين من الارواح او الاشخاص الغير مرغوب فيهم . وذلك لتأمين الراحة الابدية للفرعون المتوفي.

من كل ما تقدم يمكننا ان نرى بان الانسان وتحت هذه التأثيرات كان دائماً خاضعاً لقوى خارجة عنه يمكنها التأثير عليه، بصورة مباشرة أو غير مباشرة. لكن النفسية الانسانية بصورة عامة ليست فيها صفة مطلقة. فلطالما ترافق هذا الشعور بالعجز الذاتي مع جنون العظمة، ومثل هذا الوعي الوهمي في حقيقته يفتش عن اساس لدعم الذات الانسانية في موضوعات العبادة ذاتها، وليس في ميدان النشاط الواقعي الهادف الى تحرر ظروف الوجود البشري. اي بمعنى اخر في حال وجود تهديد ما أو شيء ما غير مرغوب فيه. حيث لم يكن الانسان يلجأ الى تغيير واقعه المعاش من خلال التعامل مع المعطيات المادية، وانما يلجأ الى هذه القوى المطلقة لرفع الشر، اوليزيل من حياته ما لم يكن مرغوب فيه، عن طريق احياء الانسان لبعض الطقوس التي يعتقد بانها ستغير واقعه أو تعينه على ذلك. وهنا تظهر الوظيفة الاولى للدين في المجتمع، حيث يلعب الدين وظيفة تعويضة تساعد الانسان على انهاء تناقضاته الحياتية بالاستعانة بهذه القوى الغيبية. ان الاستعانة بهذه القوى الخارجة عن الاطار الواقعي والملموس للانسان ادى الى ارتباط الانسان الوثيق بهذه القوى، حيث اصبحت تمثل له مصدراً للحلول. وبما ان هذه القوى غير خاضعة للانسان، بل على العكس فهي قوى مؤثرة بالانسان، اذاً فان نمط الارتباط القائم يجب ان يكون نمطاً يتوافق معه اعلان القبول بهذه القوى كعنصر مطلق ذو قوى خارقة، بل والتسليم بوجودها وتأثيرها على انها واقع لابد منه.

لقد ادى الدين في المراحل الاولى لظهوره وظيفة تقدمية، حيث كان يعطي للانسان اجابة عن كافة الاسئلة التي كانت تدور في مخيلته، وبهذا يشبع الانسان ايديولوجياً. ويقوم الدين بتلبية الحاجات الانسانية في مرحلة ما. لكن التقدم الاجتماعي المستمر كان يساهم في ظهور اشكاليات جديدة. وبالتالي تظهر الحاجة الى فك هذه الاشكاليات. ونظراً للقالب النظري الذي يتخذه الدين(كونه تلبية لحاجة اجتماعية سابقة)، فان هذا الدين يعجز عن حل هذه التناقضات ويدخل في مرحلة من التخلف والانحدار الفكري. وهنا يصبح الانسان مشتتاً مابين مايعتقد كحقيقة مسلم بها، وبين ما يواجهه من تحديات الواقع المعاش.

ان الديانات بصورة عامة و بارجائها القوة المطلقة الى عناصر غيبية خارجة عن دائرة الانسان المادية ساهمت في تنمية عناصر القصور الذاتي الانساني وبشكل كبير. وهذا ينطبق على الكثير من الديانات في الشرق الاوسط، الا ماندر منها حيث ردت بعض الديانات هذه القوى الى الانسان ذاته مثل الديانة « الزردشتية والمانوية». وكما ذكرنا سابقاً فان الديانات هي تلبية لمتطلبات المجتمع وتناقضاته وصراعاته في كافة المجالات. وهنا يمكن تثبيت نقطة اخرى، كون المجتمعات القديمة لم تعرف الا نوع واحد من الوعي، وهو الوعي الديني. لهذا كان طابع الحياة الاجتماعية هو طابع ديني. فقد كان الدين ينظم كل الارتباطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتي تتأقلم معه وحسب الحاجة. وعندما تواجه الانسان حاجات جديدة لاتستطيع ديانته أو آلهته تلبيتها، يتشتت الوعي الانساني في غياهب الغيبية او الغضب الرباني او اي سبب اخر خارج عن ارداته، وعن طاقاته المادية. وفي هذه المرحلة يمكننا ان نرى ان بعض القرابين والتقربات التي كانت معروفة في تلك الازمنة كانت تنص على بعض الطقوس التي يتقرب بها المؤمن الى موضوع العبادة بنوع من الخشوع و الخضوع لهذه القوى القاهرة، لاسترضائها. والديانات الرئيسية الثلاث في الشرق الاوسط هي خير دليل لهذا. حيث نرى تابعي الديانة اليهودية والمسيحية و الاسلامية يتقربون الى الاله بشتى الاشكال، ولكن بكل معاني الخضوع لهذه القوى الخارجية. وعلى سبيل المثال نورد مايلي:

ان الشخصية اليهودية هي شخصية دينية صبغت بهذه الصبغة، حيث كانت الديانة اليهودية ديانة حرب وغضب وثورة. فقد جاءت لتلبية حاجة اليهود الى التحرر من الفراعنة الذين كانوا في ذلك الوقت هم الطبقة الحاكمة. وقد اخذ اليهود هذه الصفة من ديانتهم، لان الوجود الاجتماعي يخلق وعياً اجتماعياً معيناً يؤثر بدوره على الوجود الانساني. لهذا فقد اخذت المجتمعات اليهودية هذا الشكل تنظيمياً وسياسياً واقتصادياً، حيث ترسخ بين المجتمع اليهودي مثلاً الاقتصاد في الانفاق وعدم الاسراف؛ فكان الشخص يبخل على نفسه بابسط المتطلبات، بينما يرفد معبده بهذه الاموال والخيرات، او لايتوانى حتى من التضحية بنفسه في سبيل هذه العقيدة. كذلك فان الشخصية اليهودية تعيش دائماً تحت ضغط الاضطهاد باعتبارهم امة مشردة، وامة مظلومة. اضافة الى ان هذه الشخصية شخصية انعزالية خارج المجتمعات اليهودية. ولكن في الداخل فهي شخصية منظمة تؤمن بالعمل المنظم والجماعي كاساس لها. كذلك يتصف الانسان اليهودي بالشوفينية والتطرف وذلك نابع من التأثيرات الدينية. فباعتقاده « بانه شعب الله المختار» أي المفضل. ونتيجة لتفاعل التيار الديني المتطرف مع التيار القومي العرقي يتسم الانسان اليهودي بهذه الصفة، اضافة الى صفات اخرى تولدت مع تفاعل التيار الديني مع تيارات انسانية اخرى تتعلق بواقع اليهود التاريخي والاقتصادي عبر العصور. وعلى العموم فان التيار الموسوي اثر تأثيراً مباشراً على الانسان اليهودي حيث اتصف هذا الانسان بكل مافي هذه الديانة من تطرف وتعصب مع الشعور بالرضى عن النفس، وجنون العظمة الفائق.

اما الديانة المسيحية فقد اضفت على افرادها مظهراً من الدعة والطيبة والمناشدة بالسلام اكثر، كون الديانة المسيحية تحمل هذا الطابع في جوهرها على الرغم من التغيير الذي حدث فيما بعد المسيح. بعد ان استخدمت كاداة لادامة السلطة. لكن الانسان المسيحي اضافة الى ذلك هو انسان مرتبط بالكنيسة بشكل كبير، وخصوصاً المذهب الكاثوليكي منه. اما المذهب البروتستانتي، فيغلب عليه الطابع الاصلاحي مع التقرب من العلمي المحدود للدين. ونظراً لطبيعة ظهور ونشأة الدين المسيحي الذي اضفى على اعضاءه بعض الروابط الاجتماعية خصوصاً بين اعضاء المذهب الواحد؛ يمكننا ان نرى من خلالها قوة التماسك الاجتماعي. فالدين

المسيحي هو دين تبشيري و خطوة وسطى، ومحاولة لاعادة الالهة الى الارض مرة اخرى. اي ان يفتح الطريق من جديد امام التجليات الالهية في داخل الانسان، وضمن مادته وجوهره.

نظراً لهذا الاختلاف الكبير في الانماط الايديولوجية مابين اليهودية والمسيحية يمكننا رؤية المسيحية اقرب الى العلمية من الديانة اليهودية الى حد ما. ان اقتران المسيح بالذات الالهية شيء وارد في جوهر هذه الديانة، لهذا فان الانسان المسيحي يرفض وبشدة اليهود وما يمثلونه وذلك لامتداده الديني ايضاً، حيث كل ديانة هي امتداد للديانة الاخرى مع قبول لبعض مبادئها ورد الباقي منها.

ولنتطرق الان الى الديانة الاسلامية باعتبارها من اكثر الثقافات المؤثرة في الشرق الاوسط. لقد كان ظهور الاسلام في الشرق الاوسط ممثلاً لثورة اجتماعية كبرى، حيث وعت الديانة الاسلامية متطلبات المجتمعات وحاجاتها العامة والخاصة وادق التفاصيل المحيطة بها، فجاءت بصورة كادت تكون شبه متكاملة في الايفاء بهذه المتطلبات. فخطت بالمنطقة خطوة كبيرة الى الامام. لكن الثورة الاجتماعية قد تعي ذاتها في المراحل الاولى من خلال الوعي الديني، ولكن سيرتها اللاحقة تتطلب الانتقاح الى اشكال اكثر تقدماً. لكن الديانة الاسلامية تفتقر لهذه المرونة المطلوبة كونها محددة بقوالب. وهذه القوالب تحدد كافة العلاقات الاجتماعية بادق تفاصيلها. ونحن هنا لانشكك بصحة هذه القوالب في وقت ظهور الاسلام، بل على العكس فقد كانت هذه القوالب متطلبات مرحلية فرضت وجودها لاحياء المنطقة العربية بالذات، كونها تلبية لحاجاتهم الخاصة.

لقد خطى الاسلام بالعرب بالذات من المرحلة الجاهلية الى المرحلة الاقطاعية وعصر الحضارة. وبخطوات سريعة جداً. بحيث ان المسلم في المجتمع الاسلامي لم يكن في استطاعته استيعاب كل هذه التطورات وبالشكل الصحيح. فقد كانت تفرض عليه اكثر مما كان يستطيع ان يفهم او يستوعب هذه التغييرات . ففي الاسلام أول المبادئ التي يجب قبولها هي التسليم بان الله واحد لاشريك له. ان التسليم بهذا المبدأ كاساس للديانة الاسلامية كان عبارة عن رد فعل اساسي امام الديانة السابقة

للاسلام اي المسيحية؛ حيث اعتبرت الديانة الاسلامية ان المسيح هو روح الله وكلمة من عنده، بينما كان الاعتقاد السائد في الديانة المسيحية ان المسيح هو ابن الله وهو بعينه جزء من الاله الاكبر. فاتى الاسلام ورد هذا المبدأ على عقبه نهائياً. وخلق في الانسان المسلم نوع من الايمان والارتباط بالاله الواحد الذي لايحيطه زمان ولا يحتويه مكان. اي ان الاسلام رد الاله الى العالم الغيبي، حيث رفعه الى السماء وجعله في منزلة لا تدركها الابصار وبالتالي قطع الوسيلة المادية، واليقين في كينونة الذات الالهية. ان هذا الانقطاع وفرض التسليم كوّن في نفسية الانسان المسلم قاعدة غير قابلة للتحليل. فهو يرد كل الاشياء الى اصل القدرة الالهية ولا يتساءل عن طبيعة هذه القدرة. او بالاحرى ليس من حقه التساؤل عن ماهية هذه القدرة. وبالتالي فان الاسلام قد خلق شخصية ذات تحليل غير متكامل لان التوجه العام الاجتماعي والطبقي والشخصي هو توجه ديني وقد تغلغل هذا التوجه في كافة مناحي الحياة العملية. وهناك مبدأ العبودية الطوعية التي اقرها الاسلام كاساس للايمان حيث يعتبر كل من دخل هذا الدين عبد بالطبيعة الى الخالق الواحد، وبالتالي فان اساس العلاقة هو اساس عبودي. وقد استغلت طبيعة هذه العلاقة من قبل الانظمة التي قامت بعد الرسول محمد (ص) لترسخ دعائم حكمها خاصة باعتبار الخليفة هو ظل الله على الارض، وبالتالي كانت طاعته واجبة وهي من طاعة الله. اي ان المسلم مرتبط جداً بهذه الانظمة التي لايمكن مناقشة قرارتها.

فمبدأ التسليم هنا يتخذ منحى اخر حيث يعمل الدين على انهاء الاشكاليات التي تتولد مابين الطبقات المستغلة والمستغَلة، باعطاء المشروعية للطبقات العليا وللخليفة بالذات في كافة افعاله. حيث يعتبر الخليفة هو الحاكم المطلق والمفوض بامر من الله. و ظهرهذا بالاخص في العهد الاموي والعباسي، حيث ظهرت هذه الظاهرة باجلى صورها في العهود التي تلت العهد الراشدي، حيث اقترنت اسماء الخلفاء باسم الله وخصوصاً في الاماكن، والمدن البعيدة عن مركز الخلافة الاصلي في الجزيرة العربية. فعند تصفح التاريخ الاسلامي تصادفنا الكثير من الاسماء مثل: المقتدر بالله ـ الحاكم بامر الله ـ المعز بالله .... الخ. وهذ المظاهر بالاضافة الى مظاهر عديدة اخرى كانت الارضية الخصبة لكثير من النزاعات اليمينية واليسارية، التي ظهرت في الشرق الاوسط، وفي الديانة

الاسلامية بالذات بعد ان كانت في قمة مجدها، حيث دخلت مرحلة جديدة تحت تأثير نزعة الزهد عند فقراء الهندوس وغنوطسية مصر والشام، والبحوث الافلاطونية الجديدة عند اليونان المتأخرين ، وتأثير الرهبان والمبشرين الذين انتشروا في الجغرافيا الاسلامية. هنا تظهر للدين وظيفة اخرى وهي الوظيفة الاحتجاجية بعد ان كانت وظيفته الاساسية هي التنظيم والتوحيد..

لقد ظهرت حركة التصوف في بلاد الفرس بشكل خاص لقربها من بلاد الهند، كما ازدهرت في جند يسابور بتأثير الديانة المسيحية والافلاطونية الجديدة الموضوعة من قبل علماء اليونان الذين فروا من اثينا الى فارس ٥٢٩ ميلادية... لقد كان المبدأ الصوفي يعتقد بان معرفة الذات الالهية المطلقة هي معرفة مستقرة في القلب، وبانقطاعهم الى الله يستطيعون ان يتواصلوا مع هذه الذات. لكن الكثير من الصوفيين حاولوا الوصول الى الله عن طريق الاشياء الخارجية ، فقالوا ان الوصول الى الله هو بمعرفة المحيط، فان كل مانراه في العالم من كمال وجمال سببه حلول الله فيه. وعلى هذا فالله هو كل شيء وهم بهذا لايكتفون بقول (لا اله الا الله) بل يزيدون عليها، بانه (لا موجود بحق سواه) ، وعلى هذا فكل نفس هي الذات الالهية... ونذكر من هؤلاء المتصوفين (ابو يزيد) ٩٠٠م الذي قال:« اني انا الله .. انا الحق... لا اله الا انا فاعبدوني». والحسين ابن منصور الحلاج حيث يقول:< انا مفرق قوم نوح.. انا مهلك عاد وثمود... انا الحق » وقد بدأت مجالس الصوفية بالانتشار في القرن العاشر الميلادي.

لقد ساهم التيار الصوفي في خلق انسان بعيد كل البعد عن مظاهر الحياة الاعتيادية غير مكترث بما يحدث له، بالعكس فهو يتلذذ بعذاباته لانها وسيلة من وسائل التقرب الى الذات الالهية، ولان الجنة ستكون مثواه الاخير. ولهذا فقد حاولت الانظمة الحاكمة ضم هذه الحركات تحت لواءها حيث قبلتها كل الانظمة من اهل الجماعة (السنة) لانهم كانوا يشغلون الانسان عن مشاكله اليومية وبهذا يتدعم حكمهم. اما الطوائف التي تخفت تحت ستار الدين، برغم عقائدها الثورية السياسة او التي كانت تدعم الى الفوضى الاخلاقية او القانونية فلم تمتد اليهم ايدي هؤلاء الحكام الا

بكل شدة وعنف. ومن هذه العقائد (الطائفة الباطنية الاسماعيلية) والقرمطية والراوندية. ان ظهور هذه الحركات هو تعبير عن الحاجة الى التغيير، وكسر القوالب القديمة خصوصاً بعد ان اقتسم الاسلام كل من المذهبين الكبيرين السني والشيعي. كل هذه الانقسامات الداخلية ادت بالانسان الى الضياع الفكري، اضافة الى الشعور المدهش بالقهر والضيم، وهو نتيجة طبيعية عندما يتذكر المسلم تاريخه وتاريخ اجداده ثم يتطلع الى حاضره فيصاب بالاحباط المفرط. اضافة الى تأثيرات الانظمة الحاكمة عليه، والتي جعلته تابعاً بصورة شبه كاملة حتى الاستقلالية الفكرية لايتمتع بها بصورة تامة. بل له استقلالية محدودة تتحدد بحدود واطارت تلك الانظمة. هذا ما يؤدي بالفكر الى الانعزالية والشعور بعدم الثقة.

لعبت الاديان في بداية ظهورها دوراً ثورياً في التاثير على الانسان والمجتمع لكن ومع تغيير الوضع الاقتصادي والاجتماعي، وبظهور التناقضات المذهبية التي اخرجت الاديان عن جوهرها الاساسي، فقد ادت الى اكتساب الاديان نوعاً من الوظيفة المعاكسة. فقد اصبحت ـ وبحكم تسييرها واستخدامها من قبل بعض الانظمة والفرق والطوائف ـ عائقاً امام تطور هذه المجتمعات لتصبح هذه المبادئ اساساً لزرع التفرقة والتناحر بين اعضاء الديانة الواحدة وبين الديانات الاخرى ايضاً.

ان زيادة الضغط الاجتماعي على الفرد من القمة الحاكمة على القاعدة المحكومة ادت الى ظهورتيارات فكرية اخرى، مثل الحركة (الجبرية القدرية) التي ترد النشاط البشري في التاريخ الى فعل قوى غيبية خارقة، او الى بنية الانسان الموروثة. وان التطورات الخطيرة لهذه الحركات وانتشارها الواسع والسريع في ارجاء المنطقة جعلت المحيط الشرق اوسطي يعاني وبصورة عامة من حالات الشعور بالقهر والتشاؤم ومن السوداوية الاجتماعية. فالانسان القدري هو انسان متشائم غير مؤمن بالمستقبل ومسلم تسليماً كاملاً بمقادير الحاضر، وحتى يضع نفسه في خدمة انماء القاعدة العامة لهذا التيار،ويساهم في تربية نفوس الاخرين ليتقبلوا هذه المبادئ.

اما عن وضع المرأة باعتبارها نصف المجتمع والوجه الاخر للجنس البشري. فيمكننا ان نلخص موقف الاديان منها كالآتي: ان مجيء الدين

اليهودي كان كضرب للمسمار الاخير في نعش السلطة الانثوية في المنطقة. فقد كان من متطلبات الديانة فرض بعض القيود على العنصر الانثوي مثل القيود الثقافية والتعليم. ولم تعد المرأة في هذه الديانة هي الاولى كما كانت في عهد العبرانيين الذين هم من اصل اليهود. فتقاليد المجتمع اليهودي تحسب النسل عن طريق الانثى، لكن الوارث عن طريق الرجل الاب المعروف والمثبت في سجلات المعبد. لقد لحقت بالمرأة في كتب اليهود الاولى (العهد القديم والتوراة) اكبر انواع الظلم، فكانت التفرقة فيما بين الجنسين على اوجها. ولاجل الاطاحة باسطورة الانثى فقد احدثت الكثير من الاساطير التي اعطت المشروعية لهذا الظلم الاجتماعي. ومن بين هذه الاساطير« اسطورة الخلق اليهودي» حيث تنص: «على ان آدم مخلوق وكان مكانه الجنة وعندما استوحش واستوحد حياته هناك اتاه (يهوه) وهو نائم واخذ ضلع من اضلاعه المقوسة لكي يخلق منها حواء». وبناء على مدلول هذه الاسطورة يمكننا ان نتبين بان حواء في الديانة اليهودية هي جزء صغير من آدم ، لهذا فهو اصلها وهي تابع له وجزء منه. كذلك هناك «اسطورة الخطيئة الاولى» وتنص على« ان الثعبان حاول ان يراود آدم على الاكل من الشجرة التي منعهم من ان ياكلوا منها الههم فيمتنع، ثم يلتفت الى حواء فتاخذ منه الثمرة وتناولها الى آدم فياكلان منها وبهذا تحدث الخطيئة والغضب والعقاب وبالتالي النزول من الجنة الى الارض.. الخ» نرى هنا وبشكل واضح الاتجاه العام للمجتمع اليهودي في تجريم المرأة باعتبارها مصدر الخطيئة والعذاب. ومن هنا يمكننا ان نلم ببعض الجوانب الاساسية للمرأة في الديانة اليهودية، وكيف كانت مستهدفة. والدليل على ذلك هو انه حتى التاريخ القريب لم يكن يفسح عن دور لامرأة حتى وان كان صغيراً. لقد عاشت المرأة تحت اطار الديانة اليهودية في ظروف اضطهادية كبيرة جداً، حيث منعت المرأة من ابسط الحقوق الانسانية كونها تابعة للرجل وليست لها اي حق في ان تشكو من ذلك.

اما الديانة المسيحية فقد كانت اخف وطأة على المرأة بسبب ان تلك الديانة كانت تستوحي من الدين العشتاري الكثير من شعائرها " فالام والاب " هما " عشتار وتموز" . وحتى رمز الصليب (الذي هو رمز مقدس في الديانة المسيحية) هو احد رموز عشتار، كما اثبتت ذلك البحوث

الاركولوجية الحديثة. مايهمنا هنا في هذه الديانة هو وجود بعضاً من تخفيف وطأة الضغط التي وضعها الدين اليهودي على المرأة، مع العلم ان المسيحية ايضاً لم تعط للمرأة ذلك الدور التقدمي في المجتمع. حتى السيدة مريم ام عيسى (ع) فان قدسيتها كانت من قدسية السيد المسيح (ع) ذاته كونها كانت الحاملة لذاته الالهية. ولم تذكر هذه السيدة في الانجيل اكثر من اربعة مرات في اربعة مواقع مختلفة وسلبية، لا تستطيع فيها غير ان تولول على ابنها المصلوب بايدي اليهود. ومن هذا المنطلق فلم تأت الديانة المسيحية بالجديد للمرأة، ولم تعد لها القيمة المعنوية الاجتماعية التي يجب ان تتمتع بها بل على العكس همشتها واتهمتها بالسحر وكثيرات هن اللاتي حرقن بهذه التهمة. ان المرأة في الديانة المسيحية هي امرأة سلبية غير قادرة على اعطاء الحلول المناسبة، وهي عنصر غير فعال، ووسيلة لشهوات الرجل. الحق الوحيد الذي منح للمرأة هو حقها في ان يطعمها الرجل، وحقها في الرهبنة والتعفف.

اما الديانة الاسلامية، فعند اجراء تقييم لدور المرأة يجب علينا ان نأخذ بعين الاعتبار، ان الظروف الاجتماعية التاريخية التي ظهرت فيها الديانة الاسلامية في الجزيرة العربية، وما احدثه الاسلام فيها من تغيير كان يعتبر قفزة تاريخية واسعة والى الامام. ونحن اذ نبدي وجهة النظر هذه فاننا نستند الى روح الاسلام وعلى جوهره المذكور في القرآن والحديث. حيث رفع الاسلام من شأن المرأة، واخرجها من محتوى الوعاء والخطيئة التي نادت بها الديانات السابقة. فوضع الاسلام الجنة تحت اقدام الامهات، وحرم وأد البنات واعطاها حرية القبول والرفض في الزواج، وحق المطالبة بالطلاق وامر لها بالعدل وكثير من الحقوق التي جاءت في الشريعة الاسلامية. ولكن كون الوضع العام لم يكن يسمح باكثر من هذا الاصلاح اولاً، ولسوء الاستعمال الذي قامت به الانظمة الاسلامية، كان سبباً اساسياً في تأخر المرأة وتردي اوضاعها الاجتماعية بصورة عامة. حيث كان تفسير الكثير من آيات القرأن حسب بعض الاشخاص ذوي قواعد جماهيرية استطاعوا استغلال هذه الآيات في توسيع الهوة بين كلا الجنسين وعلى سبيل المثال الآية التالية: (وقرَّنَ في بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الاولى) فسرها بعضهم بموجب ان تكون مكانة المرأة البيت، وهي تبعاً لهذا غير محتاجة الى العمل وغير مأمورة به، وانما

عملها يقتصر فقط على منزلها الذي يجب ان لاتتعدى حدوده. وبهذا قيدت المرأة بقيود ثقيلة اضافة الى قيودها السابقة علماً بان الدين الاسلامي لايمنع عمل المرأة في حالة الاضطرار. كذلك نجد في الحديث الذي يقول: « المرأة ناقصة عقل ودين»، فاما عن نقص عقل المرأة فنجدها في ان شهادة رجل واحد بشهادة امرأتين، واما عن نقص الدين فهي لاتصوم رمضان كاملاً وذلك نظراً لطبيعتها البيولوجية. اضافة الى حظها في الميراث ليس كحظ الذكر. وكذلك مفهوم العصمة والطلاق وكثير من الامور الاخرى، وهنا نرى بان الاسلام كان بالنسبة للمرأة خطوة الى الامام. لكن المرأة بقيت في حدود ضيقة جداً لايمكن ان تكون عنصراً في تقدم المجتمع ورفاهيته. لهذا نرى ان المرأة الاسلامية هي تحت ضغط مضاعف اجتماعياً، خصوصاً في الشرق الاوسط الذي يمثل بؤرة الصراع العالمي الكبرى في وقتنا الراهن.

أنسَبَ المفهوم القدري الى المرأة تأثيرات سلبية جداً حيث انهى الاسلام هذا المفهوم المسمى بالمساواة بين الجنسين والى الابد باعتباره اخر الديانات ومحمد(ص) اخر الانبياء. المرأة وتحت ظل هذا المفهوم اصبحت ملك لليمين أو يمكن ان تكون كذلك، وبهذا فمن حق صاحب الملك ان يتصرف باملاكه كما يشاء. وهنا اصبحت المراة مجردة من انسانيتها وشخصيتها، واصبحت تباع وتشترى تحت اسماء مختلفة . كما ان المرأة في الاسلام هي امرأة مغلوبة على امرها وهي راضية بهذا الوضع الغير صحيح. فكثيراً ما نرى من تلك النساء مَن يدافعن عن هذه المبادئ المختلفة وبصورة غريبة جداً. وكذلك المرأة كلها عورة ومحط شبه واستخفاف وازدراء في الكثير من الاحيان وليس لها الحق في ابداء الرأي. وهكذا نرى بان المجتمعات اخذت تحرف هذه الديانة بناء على مصالحها العامة الضيقة، ومن وجهة النظر الرجولية المنحازة والتي تقتصر على الفهم في الكثير من الاحيان وكونه الحاكم على كل شيء في المجتمع.

الفصل الثاني

الغنى الثقافي في المنطقة وتحول الدين الى سبب الصراع واللاحل

أ ـ عدم تأصل الفلسفات والايديولوجيات المرتكزة على التطور العلمي في الشرق الاوسط.

ب ـ تحول التفاوت الديني والمذهبي في المنطقة الى سبب للصراعات.

ج ـ التفاوت الثقافي في المنطقة، وما خلقته من وضع الصدامات واللاحل.

د ـ اوضاع التناقضات في المنطقة، والدور الذي لعبته السيطرة الخارجية في نشوء الصراعات وعرقلة حل القضايا القومية والديمقراطية

هـ ـ دور الدين في استمرار الانظمة اللاديمقراطية في المنطقة.

الغنى الثقافي في المنطقة وتحول الدين الى سبب الصراع واللاحل:

تمهيد:

يعتبر الشرق الاوسط مهداً للحضارات، وهذا ماجعله مهد للاديان ومرتع للغنى الثقافي. وبسبب تعدد الاشكال الجغرافية والطبوغرافية للمنطقة، وشدة الاختلاف مابين الشمال والجنوب واختلاف ومناعة التضاريس وتخلل الانهار الكثيرة لها، جعل طرق المواصلات تصبح شبه معدومة الاما نذر. وبسبب هذه الطبيعة الصعبة والقاسية التي لم تكن تسمح بتنقيل الانسان الا عن طريق سبل معينة ومحدودة، أنذوت بعض الاقوام في مناطق معينة واصبح لها ثقافة خاصة بها، ولم تمتزج هذه الاقوام فيما بينها الا بشكل محدود جداً.

لكن بالرغم من هذه الصعوبات ونتيجة للغنى الاقتصادي في المنطقة لكثرة المواد الخام الاولية، فقد كانت من احدى العناصر التي دفعت الانسان القديم للابداع والخلق. ومع سيادة العصور الجليدية التي غطت اوروبا بطبقة سميكة من الجليد. وباقتراب الشمس من القارة الافريقية. حيث احترقت معظم الغابات الاستوائية... لم يبق للانسان سوى هذا الشريط الضيق المحصور والمنتشر على ضفاف البحر الابيض المتوسط بجانبه الافريقي، اضافة الى منطقة وادي الرافدين التي حصنها وجود هذين النهرين واعطاء الحياة من جديد. هذا ادى بالانسان الى اللجوء الى هذه المنطقة في هذه العصور التي اتسمت بالقحط وقلة الموارد الغذائية التي كانت تمثل اساس الحياة بالنسبة للانسان القديم. ولجهل الانسان بطبيعة هذه التغيرات التي حدثت حاول ان يرد غنى المنطقة الى اسباب تتعلق بقوى طبيعية، ردها الى النجوم والاقمار والكواكب وغيرها، لهذا قدس عوامل الطبيعة وعبدها. واطلق عليها اسماء معينة اتخذها بالتالي اسماء له ولتجمعاته البشرية. ومع اتساع المفهوم التنظيمي لهذه القبائل وبظهور مبدأ الملكية الخاصة وتطور اساليب الاقتران الانساني داخل المجتمعات البدائية، كل هذه الاسباب دعت الى نشوء دول وحضارات وامبراطوريات، تنازل فيها الانسان طوعياً عن بعض من حقوقة الخاصة لقبيلته في البداية ثم تخلى عنها لدولته او لامبراطوريته باعتبارها ممثلة لهذه القوى المؤثرة في الطبيعة والمقدرة الافعال منها.

لقد كون هذا النمط بالتفاعل مع التيار الديني مجموعة من الانماط الجديدة التي اصبحت بالتالي قييم لذلك المجتمع ثم عادة أو تقليد، بناء على طرق التعامل الانسانية مع المحيط الخارجي الذي يؤثر فيه ويتأثر به. ان جملة هذه العلاقات الاجتماعية واثرها على المجتمع هي التي اعطت له الهوية الخاصة، به وكونت ثقافته ايضاً. ونظراً لقلة الاتصال بين هذه الشعوب وبتزايد اعدادها اختلفت هذه الثقافات من بقعة الى اخرى..

لقد شكلت المجتمعات اديانها بموجب احتياجاتها الخاصة. وتلبية لهذه الاحتياجات وبتقدم الزمن وتغيير التناقضات الاجتماعية، اصبحت هذه القوالب لاتفي بمتطلبات تلك المجتمعات، وبالتالي ادت الى اعاقة الانسان عن التقدم والرقي، وادى كذلك الى استمرار الانظمة المتسلطة عليه والمدارة من قبل عناصر غريبة عن هذه المنطقة. وبالتالي تأخره عن مواكب التقدم العالمية.

أ ـ عدم تأصل الفلسفات والايديولوجيات المرتكزة على التطور العلمي في منطقة الشرق الاوسط بالرغم من الغنى الثقافي للمنطقة.

بما ان منطقة الشرق الاوسط هي منبع الحضارات الانسانية الاولى، فقد كانت منبع الافكار الاصلاحية الاولى في تاريخ العقل البشري، وصاحبة اولى القوانين والانظمة الوضعية التي اوجدها الانسان لتنظيم حياته الاجتماعية والاقتصادية، وللارتقاء بتنظيم السلطة الى اعلى المراتب. وبظهور الاديان السماوية الثلاثة كايديولوجيات متسلطة في مجتمعاتها، فقد اخذت هذه الاديان في التغلغل الى كافة نواحي الحياة الاجتماعية، الانسانية حيث قامت بتحديد علاقات الانسان في المجتمع. وتحدد كذلك اساليب معالجته للمشكلات العامة التي يعيشها المجتمع، وذلك بموجب ما تضعه من اسس عامة وتصورات عديدة عن طبيعة هذه العلاقات وكيفية التصرف معها.

عند النظر الى الشرق الاوسط من الزواية الحضارية، نرى بان هذه المنطقة كانت مكاناً اصلياً لظهور الكثير من الحضارات والقوميات والاديان والمعتقدات والثقافات المختلفة. لكن العامل المشترك فيما بين هذه الحضارات والاديان ـ وهو اهم العوامل التي ساعدت على عدم تأصل الفلسفات المرتكزة على التطور العلمي ـ هو عدم اتساع المفاهيم الدينية

لتشمل متطلبات المجتمعات في تقدمها وتطورها، ونظراً لان هذه الديانات ذات اشكال ثابتة لايمكن تغييرها بموجب المعتقدات المعتنقة من قبل مؤيدي هذه الديانة أو تلك.

في العالم الغيبي يتم المهادنة بين التناقضات الحياتية الحادة وفيه تستبدل الحلول الواقعية للمشكلات المرتبطة بعلاقات الانسان بالعالم المحيط به بعلاقات غيبية. فالايديولوجيات والفلسفات الغيبية معادية في جوهرها للتقدم الاجتماعي، اذا لم تستطع هذه الايديولوجية كسر قوالب الجمود التي تحيط بعملها العام بناءً على متغيرات الاوضاع بصورة عامة.

بنقل الدين لمنظومة القيم الانسانية السامية الى ميدان افكار خلود النفس وجزاء الاخرة وغيرها، ساهمت موضوعياً في صرف افكار الناس واهتماماتهم عن المشكلات الملحة للصراع الطبقي الاجتماعي. حيث ان الدين في المجتمع الطبقي كان يضطلع بهذه الوظيفة حين كان يبارك الانظمة الفاتحة، ويسبغ عليها طابعاً ربانياً من جهة، وكان يساعد على زرع قناعات التكيف مع الاوضاع القائمة في نفوس الناس من جهة اخرى.

تتطلب الممارسة الاجتماعية المعاصرة من الناس مستوى رفيع من وعي الذات كمواطنين. حيث لايكون الدافع الى الفعل الاجتماعي هو مجرد نزوع الانسان لتحسين وضعه الاجتماعي والاقتصادي والآراء السياسية وحدها، بل الوعي الاخلاقي والمعنوي لدى الشعب.

عند النظر الى تاريخ شعوب المنطقة نرى ذلك الارتباط الشديد الذي ارتبطت به هذه المجتمعات بأيديولوجيتها الدينية. ويبلغ هذا الارتباط درجة التطرف الاجتماعي في حالة حدوث التغيير حين تقف هذه المجتمعات امام الذين يقومون بالتغييرات الجديدة، موقف العداء والنبذ الاجتماعي. وكان من اهم الاسباب، ان السلطة السياسية « الخلافة » في الاسلام كانت تخشى من الآراء والافكار الفلسفية والعلمية الجديدة من ان تكشف الجوهر الاستغلالي للنظام الطبقي في المجتمع الذي يرتدي الرداء الديني كغطاء للنظام الاقطاعي المستغل. لذلك كانوا يقومون بطرح الآراء حسب ما يتفق مع الدين ومع محاولات النقد الهيّن العديمة العنف. فهناك مثلاً العالم ابا بكر بن باجة الذي ولد عام ١١٠٦ م وكان يسميه الاوربيون باسم (افمياس)، وقد وصل في شبابه الى مرتبة عالية من المعرفة في

العلوم الطبيعية، والطب والفلسفة، والموسيقى والشعر، الا انه كان فقيراً بين المسلمين، لذلك اتهموه بالكفر، ومات مسموماً في الثلاثين من عمره. ومن اهم مؤلفاته كتاب «مرشد الحيران» فقد قال ابن باجة: « ان العقل البشري يتكون من جزأين : العقل المادي الذي يتصل بالجسم ويموت بموته، والعقل الفعال او العقل الكوني غير البشري الذي يوجد في كل الناس، وهو وحده لا يموت بموتهم. والتفكير الاسمى هو صفة من وظائف الانسان، وبالتفكير وحده ، لا بالنشوة الصوفية ، يصل الانسان الى المعرفة الفعالة وهو الله».

اما الفيلسوف ابن رشد (١١٢٦ــ ١١٩٨) م ـ حيث يسميه الاوربيين باسم (أفروس) ـ فقد كان هذا الفيلسوف والعالم من اكبر فلاسفة المسلمين تأثيراً على العقول. حيث اختطى لنفسه خطاً فلسفياً علمياً خاصاً به، في عدة مقولات ومنها قوله: « ان العالم ازلي وان حركات الكواكب لا بداية لها ولا نهاية ، وان القول بالخلق خرافة فالقائلون بالخلق يدعون ان الله ينشأ كائناً جديداً من دون ان يحتاج في انشائه الى مادة موجودة من قبل ، مخطئ لأن المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم». وقد كان مصير هذا العالم والفيلسوف هو ان نفي في عام ١١٩٤ م الى قرطبة، وعاش حياته خائفاً نتيجة توعده بالقتل من قبل كل المتعصبين للديانة الاسلامية ، ولذلك احرقت جميع كتبه عدة مرات ولم يبق منها ما يخلد ذكره الا ما تسرب الى اوربا. ووافته المنية حسرة على علمه في عام ١١٩٨م.

ان المجتمع الذي يرتبط فيه نظام الحكم والقانون والاخلاق بالعقيدة الدينية، يرى في كل خروج عن تلك العقيدة تهديداً خطراً على النظام الاجتماعي القائم. لذلك وقفت هذه الانظمة موقف العداء من حركات التجديد، فاسحة المجال لنمو جميع الافكار والآراء التي تعزز في الشعوب تخلفها، وتبعدها عن متطلبات الحياة الكريمة وتسد امامها ابواب التقدم والتطور. ويقوم بزرع بذور التفرقة والتناحرات، اضافة الى الضغط الذي مارسته تلك النظم لتجعل المجتمع يتطبع بهذا الشكل، فيصبح بالتالي شكلاً ثابتاً له. لذلك نرى ان موقف العداء الذي تتخذه هذه الانظمة من حركات التجديد والشخصيات التي تقود هذه الحركات في تطور العلم وتقدمه،

يتعارض مع المبدأ الحقيقي للاسلام ، كون جوهر الاسلام لا يعارض التطور العلمي .

فمثلاً نجد ان الخليفة المستنجد في بغداد يأمر في عام ١١٥٠ م باحراق جميع كتب ابن سينا واخوان الصفا الفلسفية. وفي عام ١١٩٤ اصدر الامير ابو يوسف يعقوب المنصور الذي كان وقتذاك في اشبيليا امراً باحراق جميع كتب ابن رشد، وايضاً حرم على رعاياه دراسة الفلسفة، وحثهم على ان يلقوا في النار جميع كتبها اينما وجدت. وهناك العديد من هذه الامثلة بدءاً من ابو مسلم الخراساني ومنصور الحلاج و نسيمي.

و الاسلام الثوري لا يقبل هذه التقربات والضغوط التي مارستها تلك الانظمة، فالنبي محمد (ص) يحث على طلب العلم والمعرفة ويعجب بالمتعلمين وطالبيها فيقول: « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً الى الجنة ». كما نجد ان هناك الكثيرمن الايات القرآنية تذكر العلم والتفكير والتعقل في الفلسفة ومبادئها منها الاية «لايستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون » وقوله « إن في خلق السماوات والارض واختلاف ألوانكم وألسنتكم آيات للعالمين ».

لم تقتصر هذه القوالب على الديانة الاسلامية بل هي الصفة الغالبة لأكثر الديانات وخصوصاً الديانات التوحيدية الثلاث. فالكل يتذكر العالم الفلكي "غاليلو" وكيف أحرقت جثته ورمي من فوق برج بيزا من قبل الكنيسة، فقط لانه قال قولاً علمياً؛ بان الارض مستديرة وليست مسطحة، وان الشمس لا تدور حول الارض، بل الأرض هي التي تدور حول الشمس.

فتطور هذه المشاعر في المجتمعات الشرق الاوسطية وتفاعلها بصورة سلبية مع العقلية الانسانية، نتج عنه نوع من التحفظ الاجتماعي الذي كان يربط كل المعارف بالخط الايديولوجي الديني الاسلامي، كونه فلسفة حياة المسلم. وبهذا أصبح التوجه العام يبتدء وينتهي ضمن هذا الإطار. فقد كان التوجه العلمي في اغلب المجتمعات الاسلامية يشترط المعرفة، ويعرفها بان كل علم يقربك من الذات الالهية، ويجعل ارتباط الانسان بالله اوثق واكبر، واكثر تاثيراً. ولهذا دمغت كل الفلسفات الجديدة

بدمغة الكفر والزندقة، خصوصاً اذا تعارضت مع ابسط القوانين او العادات اوالتقاليد المسنة من قبل تلك الاديان.

لقد خلف هذا الوضع حالة من التقوقع الفكري والانزواء الايديولوجي وارتفعت هذه الاحاسيس لتولد قناعات في فكر الانسان في المنطقة، وبالتالي شكل الانسان حياته بناءً عليها. واصبحت هذه الاراء هي الاساس الذي يتكون عليه البناء الفوقي لهذه المجتمعات. هذا وقد استخدمت هذه الانظمة الكثير من الاساليب لتعزيز هذه المبادئ المتخلفة وترسيخها في المجتمع. ومن اهم هذه الاساليب كان الترعيب والترهيب التي كان لها اعظم الاثر في تكوين شخصية الشرق اوسطية.

كل هذه التقربات التي تمت في هذه المنطقة من قبل تلك الانظمة المستبدة، ادت الى عدم تأصل الفلسفات والايديولوجيات للارتكاز على التطور العلمي. والصراع فيما بين هذ الايديولوجيات وبالاخص الدينية منها (اليهودية ، المسيحية، والاسلامية) ادت الى استنزاف طاقات شعوب المنطقة. واساليبهم المرعبة أدخلت المنطقة في حالة من الجمود والخوف من التطور.

ومن جهة اخرى نجد بان الهجمات التي تمت على منطقة الشرق الاوسط من الشرق، ومن الغرب، وضعت تطور الحضارة في طريق مسدود. فمن الشرق هناك الهجوم المغولي، حيث عانت الحضارة الاسلامية من التدمير الفجائي على ايدي المغول، الذين بقوا في المنطقة لمدة. فلم ياتوا ليفتحوا او ليقيموا، بل جاؤوا ليقتلوا وينهبوا ويحملوا مايسلبون الى منغوليا. ولما ارتد تيار فتوحاتهم الدموية، خلف وراءه اقتصاداً مضطرباً، ورماداً نذره الرياح، وحكومات منقسمة على نفسها، معدمة، ضعيفة لا تقوي على حكم البلاد. وسكان هلك نصفهم، والهزل الجسمي والعقلي. وخور العزيمة والعجز الحربي، والانقسام الديني، والفساد السياسي. والفوضى الشاملة.

لم تنتهي معاناة الشرق وحضارتها من جراء همجية المغول البرابرة، بل استأنف الغزو من الغرب عن طريق الحملات الصليبية. حتى وصل الامر الى معركة حقيقية. واصطدمت الحضارة ثانية بهذه الحروب التي استمرت ما يقارب ٢٠٠ عام. وكان من اهم اسباب هذه الحملات،

هو الطمع في خيرات النهضة الاسلامية تحت ذريعة الدين والبيت المقدس، حتى وصل الامر الى ان اصطدم الغرب مع الشرق في الحروب الصلبية، وقد وجدنا كيف اخذ المسيحيين في اسبانيا عن آداب المسلمين وعلومهم، وفلسفتهم، وفنونهم ونقلوه الى بلاد الغرب. ومع استيلاء المسيحيين على طليطلة عام ١٠٨٥، زاد من معلومتهم الفلكية.

كان هذا العداء المتبادل عاملاً فعالاً في تاريخ العصور الوسطى كلها. وفي النهاية خسر الغرب تلك الحروب. فقد طرد كل مسيحي محارب من الارض المقدسة. وقد استنزف النصر البطئ دماء المسلمين. ودمر المغول بلادهم. وعلى هذا الاساس مرت فترة من الجمود والعصور المظلمة، على الحضارة في الشرق، و التي كانت منبع الحضارات ومنبتها. ولم تنجوا من تلك القوالب التي سيطر عليها الجمود اي طرف. اما الغرب المهزوم قد انضجه مابذل من جهود، فنسي هزائمه، واخذ من اعدائه تلك الحضارة، سواء عن طريق التجارة أو عن طريق الحروب ومن الكتب التي ترجمت من اللغة العربية الى اللاتينية. وعن طريق الجوالات التي قام بها علماء الغرب الى المنطقة ايضاً.

كان هناك تعطش الى العلم والولع بالرقي عند الغربيين، فاقاموا كنائس عالية تناطح السحاب. واخذوا العقل اساساً لهم، وقاموا بالاصلاح الديني، وفصلوا الكنيسة عن الدولة. وهكذا وضعوا حداً لتدخل الدين في العلم. وبهذا الشكل ساروا الى عصر النهضة. وتقدم الغرب بالرغم من ضعف حضارته، وتخلف الشرق بالرغم من تلك الحضارة الغنية، التي كانت منبع الحضارات في العالم، وسلب من قبل الغرب على مر التاريخ.

ويجب ان نعرف ان الاسس الجوهرية في الحضارة لاتضيع ابداً مهما حل بها من زلازل واوبئة، وهجرات مدمرة وحروب مهلكة. بل ان الثقافات اذا تجددت حافظت على ابديتها واصالتها، واصبحت ملكاً لاجيال بعد اجيال من البشرية.

ب ـ تحول التفاوت الديني والمذهبي في المنطقة الى سبب للصراعات والصدامات:

كما اوضحنا سابقاً اهمية منطقة الشرق الاوسط وماضيها، التاريخي وكونها مركز الحضارات. لهذا احتلت مرتبة الصدراة بين مختلف مناطق العالم، التي ولدت وتطورت فيها التيارات الايديولوجية. وبالتالي شهدت التطور السياسي والاجتماعي. كما وتعتبر منبع للاديان وصراعاتها مع بعضها البعض، وميداناً لاقوى النضالات الايديولوجية التي نمت فيها الحياة الاجتماعية بشكل مرتبط معها. وان اخر واهم هذه الايديولوجيات، هي ولادة الاديان السماوية وظهورها، كونها اديان كونية ولها مكانتها في التنوع العقائدي والثقافي في المنطقة.

لكن بعد ظهور هذه الاديان كايديولوجيات راسخة في السلطة السياسية للمجتمع، يظهر التفاوت فيما بينها. والذي ادى بدوره الى نشوء الصراعات في المنطقة. وكما يعتبر التطور المتصاعد للتشكيلات الاجتماعية والاقتصادية هو تطور مضطرب ولا يشمل كافة التشكيلات في الوقت ذاته. ولا تحدث التحولات والتطورات في كل الاماكن وبنفس الدرجة. وعندما تتخلف تشكيلة اجتماعية عن مواكبة ركب التقدم، او حين تعجز عن التعبير عن ذاتها ببنيتها الطبقية، فستندفع بالضرورة الى اتخاذ طرق اخرى لتحقيق هذه الغاية. وبما ان الايديولوجية المؤثرة في الشرق الاوسط، هي الايديولوجية الدينية، فان هذه الصراعات اتخذت صبغة دينية او مذهبية.

نرى ان هذا التناقض والصراع بين الاديان والمذاهب، والتي تعيش حالة من التنافر والتناقضات السياسية، والذي هو عبارة عن نتيجة تناقض هذه الايديولوجيات مع تطور قوى الانتاج ووسائله. وعندما تخرج الدولة من طور الممثل الديني الى دور حامي الدين؛ اي تخلع عنها كل مظاهر الورع التي كانت تستمده من الدين، والخروج عن نهج واصول الدين الحقيقية. وعندما تقوم الطبقات المستغلة بالتعبيرعن تذمرها من الوضع القائم، ومن تردي وضعها الطبقي، فلذلك تعمد الى استخدام الدين، كوسيلة للوصول الى تأمين مصالحها الطبقية.

وتشترك الاديان فيما بينها بالدعوة الى المساواة والعدالة، والى العالم الذي يحن اليه العبيد. والذي ادى شحنهم بالاندفاع والحماس، الذين كانا يساهمان في تحويلهم الى عبيد من نوع جديد؛ الى عبيد للدين الذي

دأب في تضليلهم بالفردوس المفقود. ووفق منظور اليهودية والمسيحية والاسلام، فان اهم ما يحتاج اليه المجتمع السليم هو الايمان، وبان هذا الكون هو خاضع لحكم اخلاقي مسيطر على شؤونه؛ اي الايمان بانه مهما يكن في هذا الكون من شرّ، فان عقلاً خيراً، يعجز الناس عن ادراك كنهه يسير الكون الى غاية نبيلة وعادلة. وتشترك الاديان الثلاث، في ان هذه العقلية الكونية هي الله. ويرى محمد (ص) بان ابراهيم وموسى وعيسى، هم وحدهم الذين نطقوا بكلمات الله. ولهذا فعلى المسلم، ان يؤمن بالقرآن والانجيل والتوراة، ككتب منزلة من عند الله، والقانون والاخلاق في القرآن، كما هي في التلمود اليهودي، شيء واحد، فالسلوك الديني في كليهما يشمل، ايضاً السلوك الدنيوي، وان كل امر فيها موحى به من عند الله، او تشترك الاديان في معايير الحق والباطل، واحقاق العدل، الخيّر لصالح الانسان. والحوار الذي تدور عليه المبادئ الاخلاقية في تلك الكتب السماوية ماهي الا خوف العقاب ورجاء الثواب في الاخرة.

لا تشكل الركائز المشتركة بين هذه الاديان، الذريعة لعدم حدوث ونشوء اي نوع من الصراعات والصدامات العنيفة، وعلى الاخص خاصية التسامح الديني، واتمام كل دين للاخر. ولكن عندما تصل الاديان الى مرحلة تلتحم فيها التحاماً وثيقاً مع الدولة والسلطة والنظام القائم، فانها تصبح الاساس الايديولوجي المساند لجوهر النظام الطبقي الاستغلالي لمقدرات المجتمع. وحسب ما يتفق مع البنية التحتية التي تستند عليها، والتي تهدف الى السيطرة وابداء الفتوحات لمناطق جديدة، كمناطق نفوذها، وتؤمن لها موارد اقتصادية جديدة، تزيد من غناء نظامها الاقتصادي. وعند امتداد اتساعها على المناطق الاخرى تصطدم مع الاديان الاخرى السائدة عليها، والتي تسعى هي الاخرى الى تحقيق السيطرة والسيادة لتأمين مصالحها الطبقية في المنطقة. وما الحروب التي ولدت بين الديانات المسيحية والاسلامية الا خير مثال على هذه الحقائق، التي تكشف بوضوح منبع هذه الصراعات والتناقضات في المصالح الاجتماعية والاقتصادية. فكل واحدة من هذه الاديان كانت تخوض حرباً طاحنة، لتأمين مصالح نظامها الطبقي، وفرض سيادتها على المناطق المجاورة لها و اخفاء اطماعها التوسعية تحت رداء الدين والحملات التبشيرية. لذلك اصبح الشرق الاوسط وعلى امتداد قرون عديدة، ميداناً فعلياً لهذه الحروب

والصدامات التي تخللتها حملات النهب والقتل، وتدمير كل مايمت بِصِلة للحضارة والتي هي ذخيرة تطور الانسانية على مر العصور.

لعبت الهجمات الخارجية التي تمت تحت اسم الدين المسيحي، وحملاته التبشيرية والصليبية، دوراً مهماً في تنامي الحروب في هذه المنطقة والتي امتدت لمدة من الزمن. لذلك فانه من الطبيعي ان تصطدم مع السلطة السياسية التي تقود تقاليد الدين الاسلامي في المنطقة، والتي ترفض الخضوع لسيطرة هذه القوى الخارجية وخاصة في مرحلة الحملات الصليبية.

اما عن التفاوت المذهبي والتناقضات التي ظهرت بينها، فكما نعرف تنشأ المذاهب من الدين نفسه، وهي عبارة عن انماط مختلفة تنشأ نتيجة عاملين اساسيين:

١ ـ العامل التشريعي والتفسيري لاصول الدين، والذي تختلف فيه كل فئة أو طائفة حسب مستوى وعيها الديني وتشكيلها الاجتماعي، والوسط الذي تنشأ فيه في تفسير الدين وفق ذلك، وبالاضافة الى المقدرة التي تمتلكها في تفسير شريعة الدين واصوله.

٢ ـ وضعها الاجتماعي، والطبقي وما تفرضه من ضرورات الاختلاف المذهبي، ومن مصالح ومنافع الفئة التي تمثلها، وشكل العلاقات التي تنتمي اليها، والبنية التحتية التي تستند اليها.

تزداد الصراعات المذهبية حدة حسب بنيتها الطبقية التي تنبع منها والتيار الذي تمثله في موقفها. فالمذهب السني كمثال يمثل مصالح الطبقة الارستقراطية الاقطاعية الحاكمة في الخلافة الاسلامية؛ حيث انه بعد مقتل الامام علي وولديه الحسن والحسين (ر.ع) على يد بني امية. الذين اعتنقوا المذهب السني ويحتفظون بمقاليد السلطة في ايديهم في عهد الدولة الاموية، كذلك يمثلون في الوقت ذاته تلك الفئات التي لم تعتنق الاسلام بشكل جوهري (منافقة)، وتمثل بقايا النظام القديم. فظهرت بينهم وبين شيعة علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه) بذور الشقاق والصراع على السلطة السياسية والحق في الخلافة الاسلامية ولمن تؤول اليه. وفيما بعد اخذت شكل العلوية المعارضة والشيعة في ايران، تعارض النظام

الاستغلالي الطبقي الذي يتستر على السلطة والذي يعتنق المذهب السني. فالشيعة والعلوية بشكل خاص تمثلان التيار الثوري، ومصالح الفئات المسحوقة التي تكون محرومة من المشاركة في السلطة السياسية، لكونها تدافع عن حق اهل البيت المقربين من محمد (ص).

لكن لنعد الى تلك الفروق بين المذاهب. وماهي الفوارق بين ظهور المذاهب الاصلاحية في الديانة المسيحية ، والمذاهب في الديانة الاسلامية..؟ ولماذا وصلت المذاهب الاصلاحية الى تحقيق النصر في نضالها ضد الكنيسة الكاثوليكية المتعصبة..؟ ولماذا لم تستطع المذاهب الاسلامية تحقيقه..؟

مما لاشك فيه ان المذاهب الاصلاحية كالبروتستانتية (اللوثرية، الكالفينية، الانغليكانية) ، استطاعت تحقيق الاصلاحات في الدين المسيحي بالاستناد الى جوهر الدين نفسه، وازالة القشور الزائدة التي علقت به، وتصل بذلك الى فصل الدين والكنيسة عن السلطة السياسية. ولكن المذاهب الاسلامية لم تستطع تحقيق ذلك، بل زادت من حدة التناقضات، بسبب اطماعها ورغبتها في استلام مقاليد الزعامة الدينية والسياسية بشكل مطلق. وادى هذا بدوره الى زيادة حدة هذه التناقضات. ومن الامثلة الواضحة على استخدام الدين والمذاهب في السلطة السياسية كسلاح فعال، مثاله بناء الامبراطورية العثمانية والتي استخدمت الدين والمذاهب بمهارة لم يشهد لها مثيل من قبل. فعندما اتى الاتراك من اواسط اسيا كانوا اقواماً بربرية، اتجهوا الى منطقة الشرق الاوسط، وكانوا على شكل اتحاد عشائر وقبائل في شكل انتاجها. فواجهوا هنا الدين الاسلامي، فعمدوا الى اعتناقه لانه دين المنطقة ليمكنهم بذلك من السيطرة على الحكم في المنطقة. واعتنقوا المذهب السني، كون المسلمين في غالبيتهم سنة، وهي مذهب السلطة السياسية. اما الشعية فكما قلنا سابقاً تمثل المعارضة لهذه السلطة والحكم. وبالاخص استند العثمانيين على المذهب الحنفي في نهجهم، كون الائمة الاخرى من المذهب السني لا تجيز الخلافة من خارج قريش. ولكن الحنفية تجيزها من خارج القريش. والشيعة لم تكن في ذلك الوقت ذات صلاحية مرجعية، لتمثيل المسلمين في العالم الاسلامي. كون الخلافة هي الممثل الشرعي للمسلمين عامة. ولهذا السبب بدأت التناقضات والحروب

فيما يتعلق بمسائل تمثيل الدين والمذاهب لدى الدولة العثمانية والتي يمكن حصرها في مسارين:

الاول: ديني والذي ادى الى الحروب مع اوروبة المسيحية التي استمرت لمدة طويلة من الزمن.

والثاني: مذهبي، مع المذهب الشيعي والذي تمثله الدولة الصفوية في ايران والتي جرت بينهم حرب طاحنة وصلت الى ذروتها في معركة جالديران عام ١٥١٤ م، والانتهاء بمعاهدة هدنة وتقسيم كردستان الى جزئين كمناطق تابعة لهما، وذلك في اتفاقية قصر شيرين عام ١٦٣٩ م. وبذلك قامت كل من الدولتين بتنظيم الطرائق والمذاهب الدينية لخدمة مصالح نظامها وترسيخ تجزئة الجزء الواقع تحت سيطرتها.

اذاً فمنطقة الشرق الاوسط تعد مسرحاً للصراعات والتناقضات الدينية والمذهبية والتي استمرت حتى القرن العشرين وامتداد الاستعمار القديم والحديث الى المنطقة، والتي حركت بها هذه القوى الاستعمارية النعرات الطائفية والمذهبية والدينية والتي لاقت فيها المجتمعات والشعوب الويلات والدمار والتخلف. فالتناقضات التي ادت الى نشوب صراعات في ايران والعراق بين مذاهب السنة والشيعة، خير مثال على كيفية ترسيخ حكم هذه الدول على مجتمعاتها. كذلك استطاعت القوى الاستعمارية الاستفادة من تلك الخلافات المذهبية، وارادت ان تستعملها كآلة بيدها؛ وما اتبعته الامبريالية الامريكية في افغانستان وبنغلادش وحتى في دعم بعض الحركات الاسلامية العميلة والمزيفة لها في المنطقة، كمنظمة اخوان المسلمين في سورية ومصر والحرب المذهبية والاهلية في الجزائر، والنتائج التي آلت اليها الحرب الاهلية الطائفية والمذهبية في لبنان وما خلقته من أثار سلبية على تماسك وتعاضد المجتمع اللبناني، والذي استمر ما يقارب عشرين عاماً، خير مثال على ذلك.

اما بالنسبة الى التناقضات والصراعات المذهبية والدينية في كردستان. فانه بعد التقسيم الاول الذي تعرضت له كردستان بين الدولتين العثمانية والصفوية، وبعد اتفاقية قصر شيرين، بدأت كل منها بتنظيم العديد من المذاهب والطرائق. وما السياسة التي اتبعتها الدولة التركية الا دليل واضح على استغلال الاديان والمذاهب لبناء نظامها وحاكميتها على

المجتمع. وما نهج الاسلام العثماني التركي سوى مساع لنشر المزيد من الطرائق الدينية واختيار المذاهب، والتي هي ابرز شكل ايديولوجي وتنظيمي في كردستان. فعندما يتم الحديث عن الاسلام التركي يتبادر الى الذهن فوراً الاسلام العثماني والرجعية السنية في اطار الطريقة النقشبندية. وهو في جوهره تشويه وعكس للظواهر الاسلامية الايجابية، وقلبها الى ضدها معتمدة في ذلك على الرجعية واليمينية اساساً لها. وحتى تحريك الدولة بنظامها العلماني الحركات الاسلامية التركية مثل RP و FP لاحقاً، و الطرائق الدينية مثل النقشبندية والقادرية والإدريسية والمحمودية والسليمانية النوربخشية والنورسية، و التي دخلت الى كردستان وانتشرت بين قادة عشائرها الا وسائل خداع عقائدية للجماهير الكردستانية المتعطشة لفكر الحرية. لذلك فان النقشبندية هي الواجهة الدينية للعمالة والتبعية لتركية، وكذلك هناك البكداشية في المذهب العلوي والتي اصبحت اداة بيد الدولة ضد المذهب العلوي الذي ينضال من اجل حقوق المظلومين والمستضعفين. اجل ان شيوخ الطريقة النقشبندية ينالون نصيب الاسد من الدعم والمساندة التي تقدمها الدولة لهم. حيث كان مقرهم الاصلي والرئيسي في بدليس التي يسيطرون عليها. وهناك الشيخ سعيد النورسي، هو واحد من ابرز زعماء هذه الطريقة، نقشبندي قومي متعصب و ما دعم الدولة العلمانية لهذه الطريقة والطرائق الدينية الاخرى الا تعبير عن ازدواجية منطق العلمانية عند الدولة التركية. ويضم تحت لوائها ، النقشبندية، القادرية والادريسية وغيرها. ويتم التهجم على الشيعة « العلوية » وعلى الاديان الاخرى مثل اليزيدية والمسيحية والمذاهب الاخرى وعلى الاخص الجوانب الايجابية لدى هذه المذاهب والاديان. وكما يتم استخدام النقشبندية ذات الاساس التاريخي الذي يعود الى ادريس البدليسي وتستمد قوتها من هذا الاساس، والتي تم تنظيمها ضمن هيكل الدولة. لقد احتوت هذه الطرائق على تناقضات كثيرة واصبحت سبباً في تفرقة المجتمع الكردستاني وابتعاده عن قيمه الرئيسية. وكذلك ازدادت الخلافات بين العشائر الكردية واجزائها وجعل الانسان الكردي يبتعد عن كونه كردي، ويعمل لاجل تلك الطرائق التي كانت في خدمة الاعداء ومصالحها.كما احتوت هذه الطرائق الطبقات الفوقية اي القوى والطبقات الحاكمة الكردية العميلة. وبذلك تتوجه نحو الطبقات المسحوقة والجماهير الكادحة، ليتم

بذلك تحقيق مآرب السلطات الحاكمة في استغلال المجتمع الكردستاني ومجتمعاتهم.

هنا لا يخفى على احد بان التناقضات المذهبية والدينية تستند اصلاً على البنى الاجتماعية والطبقية في المجتمع، والتي ترتبط بتجديد شكل العلاقات السائدة في المجتمع. ومدى ما تكون هذه العلاقات عائقاً امام تطور القوى المنتجة في المجتمع. وان التناقضات الدينية والمذهبية هي احدى المشاكل والقضايا المهمة التي تواجه عملية بناء الانظمة الديمقراطية، وتواجه خصوصاً كافة الانظمة السياسية في منطقة الشرق الاوسط. حيث تمتد جذور هذه التناقضات لقرون عديدة واصبحت اليوم عائقاً جدياً امام تطور المجتمعات الحضارية. والتي رسخت تراكمات ايديولوجية عقائدية من مخلفات وآثار الدين السلبية، التي تتعمق على مرالزمن في ذهنية افراد المجتمع. وهنا من الضرورات الملحة رؤية هذه التناقضات الدينية والمذهبية، واسسها والبنية الطبقية التي تستند اليها، وتحليلها وفق اسس علمية لرؤية مجرى وشكل العلاقات التي تستند عليها.

ج ـ التفاوت الثقافي في المنطقة وماخلقته من الصدامات واللاحل والتناقضات والدور الذي لعبته السيطرة الخارجية في نشوء الصراعات وعرقلة حل القضايا القومية والديمقراطية.

لا شك ان الاجواء التي نتجت من التفاوت الثقافي تتسم بالصراعات والتناقضات العرقية والدينية، والمذهبية، وكذلك بتناقضات الطرائق التي ظهرت في اجواء هذه الصراعات. والنقطة المهمة التي تتطلب منا ان نركز عليها هي ان تشكل هذه الاجواء المليئة بالصراعات و التناقضات ترجع في سببها الى طبيعة بلورة الاديان والمذاهب والمميزات العرقية المتفاوتة والمتنوعة، وهذا بدوره ادى الى حدوث الاحتكاك السلبي في العلاقات الثقافية، ونتيجة ذلك ظهرت الصراعات والتناقضات والتناحرات الشديدة، لتصل الى ذروتها في بعض المراحل التاريخية. ففي الحروب الدامية والاشتباكات المكثفة بين الاديان والمذاهب والطرق المختلفة دلالة واضحة ومؤكدة على وجود احتكاكات سلبية داخل العلاقات الثقافية في المنطقة.

اضافة الى الدور الذي لعبته طبيعة تشكيل الاديان والمذاهب والخصائص العرقية، في نشوء اجواء الصراع والتناقضات في المنطقة عبر التاريخ، يجب علينا اظهار العوامل الجغرافية التي بدورها ساهمت في تكوين التفاوتات الثقافية والاحتكاكات العنيفة ايضاً. فطبيعة جغرافية الشرق الاوسط، كانت لها دوراً بارزاً في تكوين بنية ثقافية متنوعة ومختلفة عن بعضها البعض. فمثلاً طبيعة المنطقة الجبلية الوعرة وقساوة تضاريسها ادت الى الضعف في العلاقات الثقافية. فلم يكن باستطاعة الشعوب والقبائل والجماعات الاثنية تشكيل العلاقات فيما بينها علىالدوام. فالضعف في العلاقات والارتباطات اوعدم استمرارها بسبب تلك العوامل الجغرافية الصلبة، ادت الى نشوء تباعد شاسع بين الشعوب. لكن بسبب توسع رقعة الثقافات وخروجها من منطقة نشوئها خلال الحملات والغزوات والفتوحات الدينية والعرقية والمذهبية، احتكت واشتبكت الثقافات فيما بينها. وبنتيجة تلك الاحتكاكات خلقت اجواء من عدم قبول الثقافات لبعضها البعض، واغلقت السبل التي تؤدي الى التاثير والتأثر الايجابي، اوالى تقوية العلاقات الايجابية التي تخلق نتيجة التبادل الثقافي المستمر.

ينبغي علينا ان لانغض النظرعن العوامل التاريخية التي ساهمت مساهمة فعالة ومؤثرة في خلق هذه الاجواء، وتوسيع فضائها (اطارها). فالهجرات المتعاقبة للشعوب والقبائل من المناطق الاخرى الى هذه المنطقة، وكذلك الرحلات التجارية التي ادت الى ارتباط المنطقة بمناطق اخرى، والحملات والغزوات التي جاءت من الخارج الى المنطقة، ادت كل هذه العوامل الى تكثيف وتوسيع اطار اجواء الصراعات والتناحرات الثقافية وغيرها.....

وبهذا الصدد يمكننا الاستدلال بمثال من حملة اسكندر المكدوني على المنطقة في اعوام ٣٣٠ ـ ٣٢٥ ق.م والنتائج التي احدثتها فيما بعد من الحروب والاشتباكات. وبالرغم من انها اتت بثقافة بلاد اليونان وبعلمهم الى المنطقة واحدثت في المنطقة تطوراً حضارياً كالبناء والعمارة والاختلاط فيما بين شعوب المنطقة، الا انها لم تستطع ان تنهي

تلك التناقضات التي ظهرت بين مختلف الشعوب. وهذا ما ادى بهما الى الحروب الدموية التي راح ضحيتها اقوام وتشتت اقوام اخرى في المنطقة.

كذلك مجيئ القبائل المغولية والتتارية وماحدثت في المنطقة من دماروخراب، نتيجة حروبها الوحشية على حضارة الشعوب القاطنة في هذه المنطقة. ومافعله المغول بتلك الحضارة لم يفعلها احد في تاريخ البشرية من احراق الحضارة المتطورة ورمي كل ما تم كتابته في مياه نهر دجلة اثناء الخلافة العباسية. وكذلك الاتراك وقدومهم الى المنطقة في القرن الحادي عشر، حيث ازادت حدة الصراعات والتناقضات في المنطقة اثناء قدومهم اليها. وتاثير الحملات الصليبية الغازية لا ينسى دورها. وبالاخص حملاتها المتتالية في القرن العاشر الميلادي ومابعده في تكثيف الاجواء المتسمة بالصراعات والاشتباكات. وكان هدف هذه الحروب الصليبية هي السيطرة على مراكز قوافل التجارة من المشرق الى المغرب، والحصول على كنوز وتراث واموال هذه المنطقة. ووضعت كل هذه الاهداف ضمن شعارات تثير عواطف السذج من الناس « كشعار تحرير الارض المقدسة، والوصول الى القدس». وهكذا نرى بان تلك الاهداف كانت سياسية تحت غطاء الدين. لقد كان في الحقيقة صراعاً او حرباً شاملة لعالم المسيحية الغربية المنبعث على نحو متألم من بربرية العصور الوسطى المظلمة، التي دخل في صدام واسع مع العالم المتمدن للامبراطورية البيزنطية التي تخطت ربيعها السياسي. ومن جهة ثانية فكل من هذين العالمين اصطدما مع العالم الاسلامي الذي اقام ثقافته على القاعدتين الثقافيتين الرومانية والاغريقية.

مانستنتجه من هذه الامثلة التاريخية هي ان الهجرات والحملات الخارجية التي توالت في كل مراحل تاريخ الشرق الاوسط، استفادت من الاجواءالموجودة واستغلت التفاوتات الثقافية لترسيخ وفرض سيطرتهم على المنطقة وشعوبها وبقائهم لفترة طويلة.

فالثقافات الدخيلة التي جاءت من خلال هذه الحملات والهجرات عملت على تعميق التناقضات وتوسيع الهوة فيما بين الثقافات وزيادة حجم التناحرات بين شعوبنا.

هناك عوامل اقتصادية لعبت ادواراً سلبياً في التفاوتات الثقافية نتيجة لغنى المنطقة من حيث ثرواتها المادية. فنظراً للصلاحية العالية لاراضيها للزراعة والمراعي، وفي نفس الوقت لعدم وجود تكامل في هذه المناطق بسبب سيطرة احد القبائل او احد الاقوام عليها، ادت الى نشوء صراعات داخلية مزمنة و اللجوء الى النهب والسلب فيما بينهم.

التفاوتات الثقافية ايضاً بدورها عرقلت التكاملات الاقتصادية في المنطقة، فعدم تكامل الثروات الموجودة والاراضي الخصبة من المناطق الجبلية لمناطق السهول والصحارى. وعدم امتزاج الامكانيات والثروات فيما بينهم، سبب تفاوتاً من الناحية الثقافية من حيث العرق «الساميين والآريين »، كان للدين و للمذاهب بالغ الاثر في نشوب الصراعات والحروب والغزوات الكثيرة. فعدم انسجام واندماج هذه العوامل الجغرافية والتاريخية والاقتصادية آنفة الذكر، مع السمات والخصائص المختلفة الموجودة في كل ثقافة على حدة، اوصلت الصراعات في المنطقة الى دروب اللاحل والانسداد.

فالتحجر والمطلقيات الموجودة اساساً في الثقافات المتشكلة على ركائز دينية او مذهبية وكذلك التطرف والتعصب الديني والسياسي والمذهبي، خلق الكثير من النتائج السلبية حيث ادى بالتالي الى الانزواء الثقافي القطري لاسباب دينية او مذهبية اوعرقية..الخ. كان هذا سبباً اساسياً في ازدياد حدة الصراع والتناقض، والذي يؤدي بدوره الى حالة الاصطدام الشديد في حالة مواجهة لهذه الثقافات مع بعضها، وبالتالي انعدام كل امكانية متاحة لخلق بدايات الحوار الثقافي الذي هو اساس بناء الثقافات المشتركة والشمولية. وقد هيأت هذه الاجواء بدورها محيطاً خصباً للمداخلات الخارجية في المنطقة وذلك لعدم توافر النظام الشمولي الذي يمكن ان يجمع كل هذه الثقافات لتصهرها في بوتقة واحدة، الا وهي بوتقة الثقافة المشتركة.

لقد تجلت هذه التدخلات خصوصاً في القرون القليلة الماضية متمثلة بكل الغزوات المكدونية والتتارية المغولية والسلجوقية والعثمانية والغزوات الصليبية. هذا اضافة الى التدخلات الاخيرة، الفرنسية منها والانكليزية، ووصولها الى الذروة في التدخلات الروسية والامريكية في

المنطقة. فعند ما نصل الى مرحلة ظهور الامبراطوريتين الكبيرتين «العثمانية والصفوية »، نرى ان اجواء الصراعات قد وصلت الى ذروتها حيث بات حل هذه الصراعات مستحيلاً. فقد وضعت الحرب العثمانية والصفوية المنطقة في مأزق لامخرج منه، وفي نفس الوقت فتحت ابواب المنطقة على مصراعيها للتدخلات الخارجية المكثفة. منها التدخل الروسي في القرنين الثامن عشرو التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وفي بداية القرن العشرين تكثفت وتوسعت التدخلات الخارجية بشكل مثير، مستغلة التفاوت الثقافي الموجود بين شعوب واقوام المنطقة. وبعد ان انهارت امبراطورية الرجل المريض، شرعت الدول المتحالفة المنتصرة (بريطانية و فرنسا وايطاليا) بإعادة رسم الخريطة السياسية لمنطقة الشرق الاوسط من جديد بما يلائم مصالحهم الاقتصادية والسياسية. وتعتبر هذه الممارسة هي الاستراتيجية الاقتصادية والسياسية للقرن العشرين باكمله.

فالشرق الاوسط كان من اكثر المناطق الغنية للامبراطورية العثمانية، وعند انهيار الامبراطورية اصبحت ميراثاً للدول المتحالفة. وبغض النظر عن الحقائق التاريخية والخصائص الاثنية و الثقافية للمنطقة قامت الدول المتحالفة بتشكيل كيانات مصطنعة ومتناقضة في داخلها، متبعة سياسة « فرق تسد ». ومن خلال هذه الكيانات فرضت الدولة البريطانية نظاماً اقتصادياً وسياسياً على جميع شعوب المنطقة. وبموجب هذا النظام حافظت دول التحالف على المصالح الاقتصادية والسياسية البريطانية على مدى القرن العشرين، وعلى حساب الاستغلال والنهب لثروات الشعوب في المنطقة، وبقاء هذه الشعوب رازحة تحت عهود من التخلف والظلم بكسر ديناميكية التطور الاجتماعي. وبذلك تم تقسيم الشعوب والجماعات الدينية والمذهبية حسب سياسة فرق تسد ليحددوا في اطار حدود هذه الكيانات المزيفة، كالكيان الصهيوني الذي تم في فلسطين. ان استراتيجية بريطانيا السياسية والاقصادية كانت استجراتيجية تهدف الى استمرار الصراعات والتناقضات العرقية والدينية والمذهبية، كذلك تهدف الى خلق الصراعات الدامية بينهم.

في الحقيقة ان استمرار خلق التناقضات والصراعات في المنطقة هو الخط العام لاستراتيجية النظام المفروض على المنطقة. والجدير بالذكر ان هذه التناقضات والصراعات استمرت وبشكل عنيف وعلى نطاق واسع، وتركت اثاراً سلبية كثيرة ومتعددة الابعاد في كافة النواحي الاجتماعية. وكذلك اهدرت، أو بالاحرى نهبت الامكانيات المادية والمعنوية لشعوب المنطقة، والاخطر من ذلك هو فرض وتعميق حالة اللاحل واللانسداد. لذلك يمكن القول: ان استراتيجية هذا النظام هي استراتيجية اللاحل، وعدم استقرار اوضاع المنطقة ونشوء الحروب والاشتباكات الدامية، وبالتالي عرقلت التحول الديمقراطي في المنطقة.

كما ان استراتيجية امريكا التي تمارسها على المنطقة في وقتنا الراهن هي نفس الاستراتيجية التي ذكرناها. فاليوم تسعى امريكا من خلال فرض نظام عالمي جديد، مستغلة التغييرات الدولية والاقليمية بعد الانهيار السوفييتي. وحرب الخليج الثانية اصبحت فرصة ذهبية من اجل تكريس هيمنتها الدولية واحكام سيطرتها على المنطقة. فالنظام المذكور يسير على سياسة فرق تسد وبشكل اوسع واعمق مستخدماً القضايا والمشاكل القومية والدينية والمذهبية ايضاً. والسلطات الحاكمة ايضاً تمارس في المنطقة نفس السياسة لاحكام سيطرتها على شعوبها، مستخدمة بذلك النزاعات والصراعات القومية والمذهبية النابعة من التفاوتات الثقافية في المنطقة. ولا يلجأ الى الاساليب الديمقراطية تحاسباً من عدم سيطرتها على زمام الامور. لذلك تصبح تلك الانظمة عائقاً امام الحلول الديمقراطية السلمية.

هـ ـ دور الدين في استمرار الانظمة اللاديمقراطية في المنطقة.

بما ان الاسلام هو الدين السائد في المنطقة لذا اتسم تكوّن الدول الاسلامية الاولى بالسيطرة على الطبقات المختلفة عبر وعي واحد وشامل. ولكن ذلك لم يكن الا مؤقتاً، حيث التناقضات الاجتماعية بدأت تتفجر، وخاصة مع حروب الردة ، ثم حروب الفتوحات الاسلامية التي اغدقت على الارستقراطية القريشية والعربية خيرات البلدان التي تم فتحها. وادى هذا الى نشوب الصراعات بدءاً بقتل عمر بن الخطاب (ر.ع) ، والى قتل عثمان بن عفان الخليفة الثالثة بعد عمر ومن ثم قتل علي بن ابي طالب (ك. و) . ومن هنا توسعت الصراعات الطبقية التي نتجت من خلال

الوعي الديني الذي تحول الى وعي مذهبي. مثلاً حاول عمر بن الخطاب (ر .ع) ان يقيم توازناً اجتماعياً وان يوزع غنائم البلدان المستغلة على الفاتحين العرب، الا ان التناقضات العميقة فجرت صراعات دموية، وظهرت الاطماع على السلطة والخلافة من قبل الارستقراطية العربية التي اصبحت ذو ملك وجاه، وشكلت اراء وافكار مختلفة واساليب سياسية لحكمها الطويل.

لقد قام النظام الاقطاعي والعبودي، بعد سيطرته على ملكية الارض والفلاحين وبتفصيل بدلة دينية ومذهبية على مقياس امتيازاته ومصالحه، مواصلاً استلام ملكية البشر من اسلافه الفراعنة والاكاسرة والقياصرة، ومحافظاً على التشكيلة السياسية الاجتماعية المتحجرة، سيطرة ملطقة للحاكم. وانجرت القوى المعارضة بحكم شروط الوعي والوجود الاجتماعي ، الى استخدام العبادة الدينية في تبرير اختلافها وصراعها مع الحكم الديني والمذهبي المركزي. فابتكرت مذاهبها الاخرى، لتعكس مصالح جهاتها واممها وجماعاتها. ورغم انها لوحت بالعدالة وتحقيق المساواة وخدمة المناطق والاقاليم المختلفة وحققت انجازات ملموسة في سبيل ذلك، الا ان الاغنياء والكبار ، والمتسلطين ما لبثوا ان سيطروا على المذاهب، ووضعوا الثروة والسلطة تحت تصرفهم، فغدت الحروب المذهبية الدامية والمتعددة تعبيراً عن حروب اجتماعية داخلية يتم اخفاؤها من قبل الحكام والمتسلطين على زمام الامور.

لذلك نرى ان المعارضون خسروا عملية التغيير العميقة والشاملة في المنطقة بلجوئهم الى الدين وتفسيره مذهبياً، وكذلك دمروا الدولة التي ارادوا انقاذها. هذا ولم تكتف الطبقات المسيطرة، في كل المذاهب المنقسمة المتعادية، ومن خلال كل الاسس الاجتماعية في حركتها التاريخية ان تسيطر على التناقضات الموجودة، وحتى باستعمالها ادوات القمع المادي وبعنف جيوشها وبسجونها وفرض الجزية على شعوبها. بل وكذلك جعلت من المذهب الديني وسيلة للقمع والسيطرة، عبر ازاحت كل ما هو انساني.

لقد حاولت الامم الاسلامية عبر مذاهبها ان تتحرر، وكانت الجماعات الدينية تحاول بطريقة الفكر الديني الخروج من سيطرة المذهب

الحاكم المركزي. لذلك حاول المتنورون الاسلاميون ان يزحزحوا تلك المركزية الشمولية المذهبية الاقطاعية عبر تخفيف مراكزها .

هذا وقد اتبعت الامبراطورية العثمانية سياسة استعمارية متخلفة، كان الهدف منها تفتيت قوة الحركات المناهضة لها، وتشتيتها لضمان عدم تشكيل جبهة يمكن لها ان تهددها او تهدد حكمها. وقد بلغت هذه السياسة ذروتها بتقريب بعض الفئات الاجتماعية والدينية المختلفة . وباتخاذ الامبراطورية المذهب السني اساساً لها، قامت بتحريض اعضاء الجماعتين (السنة والشيعة) على بعضهم، اضافة الى تشجيع الطرق الصوفية، التي ربطت اغلب شيوخ هذه الطرائق بامور السلطة. وكانوا يدعون باسم الخليفة أو السلطان العثماني في صلواتهم، اضافة الى انهم اصبحوا من اهم العناصر التي ترسخ الوعي الديني بالشكل الذي يربط هؤلاء الجماهير بالباب العالي، الذي يعتبر ظل الله على الارض. لذلك ولقطع هذه المجتمعات عن كل التطورات العالمية خارج الامبراطورية، فقد قام السلاطين العثمانيين برد كل الثقافات القادمة من اوروبا تحت شعارات ان اوروبا « بلد الكفار ». فهذه السياسة التي اتبعوها بذرت الكثير من بذور التفرقة والعنصرية، وفرقت ما بين الاديان والمذاهب وفئات الشعب، واشعلت بينها الحروب كالحروب مع الارمن والمجازر الجماعية ضدهم (حرض الاكراد على مقاتلة الارمن). وبذلك قطعت المنطقة عن التطورات العلمية ورزحتها تحت عصور من الظلام والجهل التام في ظل السيطرة العثمانية. ونلاحظ ان اثار ذلك مازالت باقية الى يومنا هذا حيث النعرات الطائفية والمذهبية مابين السنة والشيعة، والتي تمتد جذورها الى الحروب بين الامويين والعلويين، ومن ثم استغلالها من طرف العثمانيين وتحريض الاكراد ذوي المذهب السني على الحرب ضد الصفويين الفرس ذوي المذهب الشيعي وبذلك جعلوا كردستان ساحة للحرب بين المذاهب والطوائف الدينية التي مازالت اثارها باقية الى الآن .

ولكي يستمر هذا النظام الحاكم في السلطة، استخدم لاجل ذلك كل اساليب الترهيب والزعر والمجازر الجماعية، وكذلك تمت التدخلات الخارجية من اجل الحفاظ على هذا النظام القديم البالي. ولا يخفى علينا مساعدة الالمان للامبراطورية العثمانية، اي ساعد الالمان العثمانيين في

استمرار سلطتهم. لان الالمان كانوا يهدفون الى الاستفادة من المنطقة لغناها بالمواد الاولية لصناعاتها. ولهذا السبب اخذ النفوذ الالماني يتسع في المنطقة، وقامت بذلك ببعض المشاريع لضمان مصالحها في المنطقة. وبالاخص في كشف النفط.

وبانهيار الامبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى، تم تقسيم ممتلكاتها من قبل فرنسا وبريطانيا، واللذيّن كانا لهما نفوذ واسع في المنطقة ايضاً. وبذلك تم تقسيم منطقة الشرق الاوسط الى عدة مناطق. و كانت هذه سياستهم لاجل وضع خيرات المنطقة في خدمة صناعاتهم، وكذلك جعل المنطقة سوقاً لتصريف منتجاتهم. وبسياسة (فرق تسد) قاموا ببناء سلطتهم وسلطة الانتداب ، التي تعتبر سلطة لا ديمقراطية وتعيش دائماً في تناقضات وصراع. وبذلك حافظت على نمط العلاقات الاجتماعية القديمة، وما جرى تغييره هو مجرد تغيير المسميات لا اكثر.

لذلك ولكي لا تخطو المنطقة خطوة نحو الديمقراطية، قامت الدول الاستعمارية باشعال نار الفتنة بين الطوائف والمذاهب الدينية وبالاخص في منطقة كردستان، والمناطق الاخرى. وحتى استفادت ايضاً من الميل القومي لتلك الشعوب. وارادت بذلك ان تحدث التناحرات والصراعات بين تلك الشعوب. مثلاً الصراعات الدائرة بين الشعبين الكردي والعربي في العراق، وكذلك في سوريا وفي تركيا ايضاً. وكان الهدف من هذه الصراعات هو اقحام المنطقة في حالة من اللاستقرار. كذلك كانت سياستهم مستندة على ايصال الاقلية المذهبية الى الحكم وبقاء الاكثرية في تناقض شديد معها. مثال وصول المذهب السني الى الحكم في العراق وبقاء الشيعة التي تمثل الاكثرية بعيدة عن السلطة. كذلك وصول العلوية في سوريا الى الحكم وبقاء الاكثرية السنية بعيدة عنها. كل هذه الاساليب هدفها زعزعة امن المنطقة وابقاء التناقضات فيها، وعدم حل مشاكل المنطقة حلاً كاملاً. ومن جهة اخرى بقيت المجموعات الاثنية بعيدة عن السلطة، حتى تكون محتاجة الى تلك السياسة التي تقوم بها فرنسا وبريطانيا.

كما ان السلطات التي قاموا بتأسيسها، استغلت التفاوتات الدينية والمذهبية ولم تفتح الطريق للتطور الديمقراطي كون الاديان والمذاهب

كانت لها اسس متينة في المنطقة. كذلك عند النظر الى البنية الطبقية للانظمة الحاكمة في المنطقة نراها ما تزال تلجأ الى الدين كوسيلة لاستمرار سلطاتها بانواعها المختلفة، وتظهر باسم الدين تحت اشكال مختلفة. وبذلك تجعل جميع الطرق مسدودة للاتحاد ما بين شعوب المنطقة بحجة ان المذهب الفلاني مخالف للاسلام، او ان الدين الفلاني بعيد عن قوانين الله وغيرها من الاساليب التي يستخدمونها كما قلنا لاستمرار منافعهم واستغلال قوة شعوبهم في خدمة مصالحهم الخاصة.

وضعت الدول الاستعمارية وبانظمتها المحلية، الدين في خدمة مصالحها، وبذلك سخرت خيرات الشعوب لصالحها. ونتيجة الضغط والتخلف والجهل الذي ساد بين شعوب المنطقة بالاضافة الى ويلات الحروب وبالاخص الحرب العالمية الثانية، بدأت تنمو بين صفوف الجماهير الشعبية حركاتها التحررية لاستقلالها من سيطرة الحكم الاجنبي. وتأثرت بعض الحركات بالثورة الاشتراكية في روسيا، الا ان هذه الحركات اتخذت الدين اساساً في نضالها ضد انظمة الانتداب. وبذلك استطاعت ان تجذب عواطف شعوبها، وتسيطر على احاسيسها وتولد فيها روح الخلاص من تلك الانظمة الاستبدادية.

بدخول امريكا الى الكتلة الرأسمالية بعد ان خرجت اوروبا من الحرب العالمية الثانية ضعيفة، ظهر سباق التسلح الدولي مابين الكتلتين العظيمتين في الشرق والغرب. وترافق ذلك مع ازدياد الحاجة الى توريد الخامات الاولية التي كانت منطقة الشرق الاوسط افضل مورد لها، لذلك قامت بالتدخل في المنطقة وانشأت كيانات مرتبطة بها، دون الاخذ بعين الاعتبار مصالح شعوبها. مثال ذلك « الدولة الشاهنشاهية في ايران»، و الدولة التركية على حدود السوفييت. ونتيجة ذلك دخلت المنطقة العديد من التيارات الفكرية والثقافية الغربية« مثل التيار التكنوقراطي وعوامل الحداثة وما بعد الحداثة والعولمة... الخ ». وكذلك المثال الواضح على ذلك هو (الوطن العربي). رغم التنوع في الثقافات والاديان والتيارات الفكرية الاخرى، نشأت في الوطن العربي بعض الدول الغربية في تشكيلاتها الاقتصادية والاجتماعية، وكانت الغاية من انشاء هذه الدول هي ادامة نقاط الصراع والتفرقة لتبرير التدخل الخارجي، اضافة الى نقاط التوتر، التي

يمكن استخدامها في اي وقت لزرع حالة اللااستقرار، وانشغال الجماهير بالمسائل الدينية الخرافية والانغراق في قوالب التخلف، والاستمرار على الخلافات القديمة، والابتعاد عن قضاياها الاساسية، ومواكبة التطورات العالمية. فالدول العربية، ورغم وحدة الدين، الا انها انقسمت الى ثلاثة وعشرون دولة وظهرت في كل دولة تفاوتات دينية ومذهبية عديدة، وهذه التفاوتات والاختلافات لم تسمح بالتحول الديمقراطي في المنطقة.

كما ان تشكيل الكيان الصهيوني في قلب الدول العربية كان ايضاً ضمن تلك الاهداف الاستعمارية. لذلك يبقى الخلاف مستمراً بين الاديان وتعود اسبابها الى تاريخهم المتناقض الذي لا يسمح لهم بالتقارب والتعايش. وكما استهدف ذلك الكيان الى الحيلولة دون اتحاد دول المنطقة، لان اتحادهم يفتح الطريق للتطور الديمقراطي ويرجع اليهم دورهم الرائد في تطور الحضارة البشرية.

اضافة الى ذلك استغلت الانظمة الحاكمة والدول الاستعمارية بعض نقاط الصراع في المنطقة لدفع مشاكلها الداخلية عن طريق اثارة موضوع جديد. وهذا ما تم رؤيته من خلال ظهور حركة اخوان المسلمين التي كانت تدعم وتساند من قبل امريكا والمتحالفين معها. وكما نعرف ان سياسة الامبريالية وايديولوجيتها لا تتفق مع ايديولوجية الدين الاسلامي، فكيف تقوم اذاً بدعم حركة باسم الاسلام وما الهدف من ذلك..؟ كما اشرنا سابقاً الى كيفية استغلال الدين من قبل الامبريالية للمحافظة على مصالحها، ولزعزعة المنطقة حتى تكون مبرراً لمداخلاتها. وهذا يعود الى التحليل الشامل الذي اجري بصدد الدين من قبلهم، كون شعوب الشرق الاوسط ما تزال قابعة تحت تأثير الدين. لهذا اذا لم تستطع مجتمعات الشرق الاوسط ان تتخلص من التأثيرات السلبية التي ظهرت بمرور الزمن تحت اسم الدين فانها ستبقى متخلفة عن التطورات العالمية. وهذا لا يعني ان تتخلى عن اديانها انما ان تتخلص من تلك التأثيرات التي تبعد الانسان عن التحليل العلمي لجميع مشاكل المجتمع.

وكذلك قامت تلك الدول الاستعمارية مع انظمتها المحلية، بتعميق وتعزيز دور المؤسسات المذهبية، التي اعتمدت على تخلف الشعوب كشرط لديمومة النهب الاجنبي والداخلي. وكما ان القوى النامية ببنيتها

الاقطاعية البرجوازية المتداخلة لم تحتوي برامجها على اسس نظرية، وسياسية لبناء مجتمعات ديمقراطية. فقد وجدت منفعتها في ابقاء البنية القديمة، مع اجراء اصلاحات اجتماعية وسياسية ضمنها ـ بالاخص اغفالها عن افكار المتنورين في فصل الدين عن السياسة والدولةـ تعبيراً عن ارتباطها مع تلك التركيبة المتخلفة.

عندما بدأ رجال الدين النهضويون المسلمون في القرن التاسع عشر كفاحهم المتصدي للسيطرة الاجنبية المحدقة، وللتخلف الشديد، جعل كثير منهم الدين مرة اخرى اساساً لعملهم السياسي. ومنذ ذلك الحين وضع الاساس الحديث للمشكلات الراهنة. لذلك نرى ان شعارات النهضة ومقاومة الاستبداد والدعوة للحكم البرلماني، واصلاح التعليم، ونشر المعارف كانت خطوة ايجابية في سبيل النهوض. ولكن بقيت هذه الشعارات غير مدركة لطبيعة الوضع السياسي الديني المحافظ. وكان هذا تعبيراً عن التركيبة الاجتماعية التي صار الغرب الرأسمالي نفياً لها، بنموذجه التحويلي للاقطاع المسيحي، وفصله عن الدولة والسياسة، وبالغائه للطبقات الاقطاعية المتحكمة في ملكية الارض والبشر والعقل. فذلك الدين المسيحي الذي كان يملك تاريخاً طويلاً من التعصب وكان يصعب عليه دائماً التعايش مع الاخرين، نتجت عنه مجتمعات تحترم حرية التعبير، في حين ان العالم المسلم الذي مارس التعايش لزمن طويل يظهر هذه الايام كمعقل للتعصب.

وهكذا نرى عند التحليل، وبالاخص تحليل مجتمعات الشرق الاوسط، نجد ان الدين او بالاصح الانظمة التي استغلت الدين لحماية مصالحها، لعبت دوراً كبيراً في عدم وصول هذه المجتمعات الى الحلول الديمقراطية، كون الانظمة الموجودة انظمة لاديمقراطية وبعيدة عن جوهر اديانها في التسامح والمساواة فيما بين الشعوب.

واذا ارادت هذه الانظمة ان تدخل في مسير البشرية التقدمي، لابد لها ان تجري تحولاً جذرياً في بنيتها، وان تستفيد من الغنى الثقافي الموجود في المنطقة، وتضع الدين جانباً بعيداً عن السياسة. وبهذا يبقى الدين بين الانسان وربه ولايتدخل في سياسة الدولة. فهذا هو السبيل لاجل الوصول الى منطقة مستقرة يسود فيها نظام ديمقراطي بعيداً عن الاستغلال

ومحترماً لحقوق الشعوب، وان يكون في خدمة تطورها وتقدمها(**اي** في خدمة شعوبها). لذلك ان استمرار هذه الانظمة ينبع من استمرار الوضع الحالي الذي يسوده التفرق، فيمابين القوى الوطنية المتعددة وعدم تحالفها مع بعضها لخلق قوة شرق اوسطية التي كانت الخاسر الوحيد في هذه المعركة.

الفصل الثالث

اقتراب الخط الديمقراطي لـ PKK من الغنى الديني والثقافي في المرحلة الجديدة

آـ الدين والانسان في الفلسفة الآبوجية.

ب ـ الدور الذي لعبه PKK لاجل تلاقي انسان ومجتمعات المنطقة مع قيمها المعنوية.

ج ـ سياسة PKK لدمقرطة الاسلام والحريات الدينية.

د ـ موقف PKK الديمقراطي من التمايز الثقافي في المنطقة وطرق حلها.

هـ ـ استراتيجية PKK لبناء الاتحاد الحر للمعتقدات والثقافات المختلفة في المنطقة.

اقتراب الخط الديمقراطي لـ PKK من الغنى الديني والثقافي في المنطقة.

تعتبر منطقة الشرق الاوسط ذات ماض تاريخي عريق، ومركزاً شاهداً لحضارة شامخة. واحتلت مركز الصدارة بين مختلف مناطق العالم، كونها منبت الاديان، وصراعها مع بعضها البعض، وكذلك ميدان اقوى النضالات الايديولوجية التي نمت الحياة الاجتماعية بشكل مرتبط معها. فقد قام ابناء هذه المنطقة الغنية بارساء الدعائم الاساسية للحضارة، وساروا بها الى ارقى المستويات. واصبحت بذلك مركزاً للحضارة البشرية، وتملك

ماضياً وتراثاً تاريخياً غنياً. ولم تلحق بركب الحضارة مثل المناطق الاخرى من العالم، بل كانت منبتها ومهدها.

نستطيع القول: بانه ومنذ اليوم الاول الذي ظهرت تلك الاديان في المنطقة وحتى الان، قامت بنشر دعوتها وتوطيد اركان سلطانها. واصبحت المنطقة بفضل خصوبة اراضيها،وبروح ابناءها المعنوية الاصيلة، وغنائها الثقافي، وكذلك اضافة الى غنائها بالمواد الطبيعية السطحية والباطنية، كل هذا لفت انظار الاعداء للاستيلاء عليها. وادت بدورها الى نشوب حروب طاحنة. وبذلك اصبحت المنطقة تعيش وضعاً متناقضاً مع ماضيها المجيد، نتيجة تلك الحروب والصراعات المستمرة.

اصبح الشرق الاوسط مركزاً للتطورات التاريخية لما فيها من فنون وثقافات وسياسات وفلسفات، وهي في نفس الوقت موطن اولى المجتمعات البشرية، وفيها ظهرت اول الامبراطوريات العبودية (السومرية ،البابلية، الآكادية، الاشورية، الميدية، الفارسية). كذلك تعتبر المنبع الاصلي للديانات السماوية التوحيدية (اليهودية والمسيحية و الاسلامية)، وكذلك الديانة الزردشتية. وهذه الديانات كانت خطوة متقدمة للمجتمع نحو حياة افضل. مثلاً، الديانة الزردشتية اصبحت سبباً لتحسين احوال المعيشة في مجتمعاتها، فأتت بالعمل بدلاً من البطالة، وبالسعادة والصبر، وبدلاً من التعاسة والحزن، وبالخير بدلاً من الشر. وكما نعلم بانها فهي لا تقبل الظلم، انما الاساس فيها هو النور. وهكذا الدين اليهودي الذي ظهر كدين لخلاص الشعب اليهودي من الانحطاط الاخلاقي والفساد. والدين المسيحي، الذي ظهر منقذاً لبني اسرائيل من مجتمع يسوده المساوئ الكثيرة والتناقضات والصراعات والحروب القبلية المستمرة.

نرى ان هذه الاديان استطاعت ان تحقق اهدافها في المرحلة التي ظهرت فيها، واعطت جواباً لازمات المجتمع العميقة، واصبحت بذلك سبباً للاستقرار في مجتمعاتها نوعاً ما. وكونها كانت لاجل خلاص البشرية لهذا لم تضع حدوداً لها لاجل نشر دعواتها، ماعدا الديانة اليهودية التي اصبحت ديناً قومياً لليهود. الا ان هذه الديانات رغم مبادئها الانسانية، فانها لم تحافظ على طابعها التقدمي بعد موت قيادتها، واصبحت في خدمة السلطات الحاكمة، وتم التصرف باسم الدين والحاق الالام والمآسي

بالشعوب من خلالها. وبهذا الصدد يقول القائد APO :«وحتى يومنا هذا تحكمت حروب الايديولوجية الدينية في المجتمعات. واعطتها شكلاً، ونظراً لان هذه المنطقة كانت خاضعة للاديان الرئيسية الثلاث، فانها ادت الى تجديد هذا التناقض في المنطقة، والى فقدان الاديان لتكوينها التقدمي في بداية ظهورها، وان تصبح عائقاً امام العلم وتطوره. ولم تنجح في تشكيل مقاييس وتقاليد ديمقراطية. والاقطاعية التي القت بظلها الثقيل تسببت في مزيد من المحافظة والتعصب، وانصهرت بعض الخصائص الديمقراطية التي كانت موجودة في البنية العشائرية، لتحل محلها كافة اشكال التسلط في بنية المجتمع. و لم تفتح الحرب الدينية والمذهبية المجال امام الاصلاحات كما حدث في الغرب، بل ادت الى مزيد من الانغلاق، وهذا ما ادى الى تخلي الفرد والمجتمع عن نضال الحرية والتحرر، وكاد يتم نسيان حرية الفكر والسياسة تماماً».

الا ان الديانة الاسلامية خاضت حرباً طاحنة لاجل نشر دعوتها، وبها فتحت مناطق كثيرة في العالم. ولكن نتيجة الاختلافات التي ظهرت داخلياً في المجتمع الاسلامي، تكونت المذاهب، وكذلك الامر بالنسبة للاديان الاخرى. وكما تمخضت عن هذه التناقضات ظهور حروب عنيفة بين المذاهب. وجعلت المنطقة ساحة لمعارك طاحنة لها. الا ان فاعلية الحروب التي ظهرت على ساحة هذه المنطقة، وتطورها وسعيها لاحباط ودحر الهجمات الخارجية، ادت الى نشوء نوع من الوحدة. تطورت ونمت، وبذلك قوضت الحكم المسيحي في المنطقة. كما ظهرت في عهد صلاح الدين الايوبي وتوحيده لشعوب المنطقة، وشكل منهم امة مختلفة الاجناس والقوميات من الكرد والعرب والنصارى وغيرها ووحدها تحت لواء الاسلام. وبهذا تكرست سيطرت الدين الاسلامي على المنطقة، واصبحت فيما بعد سيطرة ايديولوجية ـ سياسية. وتتجسد في سيطرة وسيادة اكبر مذهبيها (السني والشيعي) على المنطقة.

لهذا نرى بان جيمع الثقافات التاريخية الموجودة في يومنا الراهن هي ثقافات غنية، وتشكل موزاييكاً لشعوب مختلفة. وثقافات واديان هذه الشعوب هي التي بنت حضارة عريقة، استفادت منها جميع المجتمعات البشرية. وهذا يعني بانه لابد للانسان ان يكون لائقاً بتلك الثقافات ومحترمًا

لجوهر الاديان، لانها من نتائج الجهد البشري. ويقول القائد آبو بهذا الصدد: « لابد من تشكيل "سنتز" » وكما يقول ايضاً : « ان التداخل اللغوي والثقافي بين الشعوب المتعايشة على مدى عصور طويلة، والانصهار الجاري في تلك الفترة، عوامل لا تسبب الضعف والانفراد والابتعاد، بل تشكل ثروة وتنوعاً ومصدر للقوة، وتدفع الى التقارب في العيش وهذا ما تفضله الشعوب». وبهذا فان الحل الديمقراطي، هو الاسلوب الافضل للتآخي بين الشعوب والعيش المشترك. ومن خلال تحليل الغنى الثقافي لهذه الاديان وتحليل جوانبها الايجابية من طرف PKK وبالاخص تلك الجوانب المتعلقة بخدمة البشرية وتطورها وتقدمها، وضع لها حلولاً معقولة نظرياً وسار بها الى الواقع العملي، وجعلها من المبادئ الاساسية في الثورة؛ أي التسامح والتعاون والمساواة والاحترام والتقدير وغيرها من تلك الصفات الاخلاقية الحميدة. ولاجل الوصول الى مجتمع تكون تلك الصفات اساساً لاخلاقها، فان الشعب الكردستاني يشكل لبناء الاساسي لها من خلال معاشرته لشعوب المنطقة، والاختلاط معهم ضمن اطار حقوقه المشروعة، والتعاون والتحالف فيما بينها، وجمع ثروات هذه المنطقة لتكون ذخراً كبيراً للانسانية جمعاء. وكذلك بالرجوع الى جوهر الاديان وحلها وفتح السبل الديمقراطية لها لكي تتحول وتتطور.

أ ـ الدين والانسان في الفلسفة الابوجية.

في الفصول السابقة تطرقنا الى كيفية تطور الفلسفة عبر التاريخ الانساني، وبالتالي كيفية تطور الايديولوجيا معها ايضاً. فالايديولوجيات الدينية تطورت بمستويات متغيرة، وفي مجتمعات مختلفة بشكل فائق، عن اية ايديولوجية اخرى. وتستمر حتى الان.كما وجدت ايديولوجيات شكلت الفلسفة، البنية الاساسية لها. وهنا يجب ان نفهم المعنى الحقيقي للتصنيف الفلسفي. فالفلسفات اما قد ظهرت من الاديان، اونشأت بعد مرحلة التطور التي حققتها الاديان فيما بعد. هذا يعني ان للفلسفة تاريخ قديم كالاديان. فالفلسفة اكثر قرباً من العلمية والفرق بينها وبين بقية الافكار، هي انها تلقي الضوء على شتى المفاهيم المتعلقة بالكون والمجتمع الذي يعيش فيه الانسان. فالخصوصيات الاساسية التي لوحظت حتى الان، هي ان جميع التغيرات التي حدثت مع التطور البشري من حيث الفكر، والايديولوجيات،

وحتى السحر والشعوذة مروراً بالاديان بمستواها الفلسفي والعلمي تم بشكل متداخل مع الحياة، وبدونه لما حصل هذا التطور. فالانسان يعتبر انساناً بقدر تاثيراته الفلسفية والعلمية، ودرجة خيالاته وممارساته العملية في هذا المجال. فتاريخ الحضارة البشرية شيد على امتزاج هذه العناصر(قوة الانسان، الدين، والفلسفة)، وقطع حلقة منهم تعني وقوف سيرورة وديالكتيك الحياة، فاذا كان الدين عبارة عن بداية الفكر الانساني ورقي المجتمعات عبر تحديده للبنى الفوقية والتحتية للمجتمع، فان الفلسفة قامت بالتحليل والجدال.

من هذا المنطلق لايمكن الاستغناء عن دور الفرد والانسان الذي لعبه في تقدم ديناميكية المجتمع. فالثورة الانسانية التي طورت الحضارة وآلت بالمجتمع الى الازدهار، والرفاهية، واكسبته عصراً جديداً نحو العلم والفن و السياسة، كان ذلك عبر رفضها للافكار القديمة البالية وابتكارها للافكار الدنيوية، والتي تتلائم و متطلبات المجتمع الحديث. وهذا لايعني رفض الدين ولاحتى التصوف. فان الذي تم بناءه ونقده للقديم بمفهوم طبقي كان سبباً في رد القيم الروحية، والمعنوية، وحرية المعتقدات الدينية المقدسة، والتي تتطلب مع طبيعة الانسان. اذاً فالاديان السابقة والتوحيدية منها وفلسفاتها كانت بمثابة استمرار واتمام لبعضها الآخر. ولكن على الرغم من هذا فان التنقاضات الكثيرة بينها من حيث العادات والتقاليد والمفاهيم الدينية والمذهبية والطقوس وغيرها..... ادت الى انقسام الدين على نفسه، وظهور حرية الفرد الدينية والمذهبية في افكاره، وجعل المجتمع غير مبالياً بالتاريخ ولاالمستقبل بقدر اهتمامهم بالحاضر المعاش. ويقول القائد آبو « نحن لا نحاكم الحاضر بل التاريخ، ولا نحاكم الشخص بل المجتمع ».

ان الاشتراكية المشيدة والاحزاب المرتبطة بها، ورغم تحليلها للظواهر الطبيعية والاجتماعية بشكل علمي، الا ان تطبيقها في النضال العملي اثبت ان ما تم نقدها وهدمها لم تكن رجعية المجتمع وتخلفه، وسلبيات السلطة، بل كانت القيم الروحية والمعنوية التي ظهرت عبر التاريخ، والتي كانت تتعايش مع طبيعة الانسان واسطورته التاريخية. فنتيجة ضيق الافق والجمود العقائدي وعدم التمسك بمصالح المجتمع

المادية والمعنوية، واخذ المصلحة الطبقية اساساً لها، وعدم ربط التاريخ بالمستقبل بشكل ديالكتيكي، ادت كل هذه بالاشتراكية الى الانهيار التي اردات تطبيق الاشتراكية العلمية بالغنى عن الجانب المعنوي للمجتمع والانسان، وعدم فهمه بالشكل الصحيح. ويقول القائد آبو بهذا الصدد: «ان الاشتراكية انحرفت عن جوهرها الايديولوجي وهذا لا يعني افلاسها. وكل انحراف محكوم عليه بالفشل والانهيار ». ومع هذا الانهيار ونتيجة مداخلات الراسمالية في المرحلة الاخيرة والتي عملت جاهدة لتحويل الاشتراكية الى مذهب من المذاهب الضيقة (اي عزلها عن جوهرها). فانها بذلك اردات ان تبينها بصورة لايمكن العيش فيها. وايضاً نتيجة المفاهيم الخاطئة التي قامت بها الاحزاب اليسارية بتشويهها للدين والقيم التي اصبحت جزءاً من حياة المجتمع، اعطت القوة لتلك الصورة التي رسمتها الامبرالية، ومن هذا المنطلق لانستطيع القول بان ما تم نقده وهدمه كان صائباً وايجابياً في منطقة الشرق الاوسط، بل كان له تاثيرات سلبية امتدت جذورها الى يومنا هذا. فوضعت الحقائق جانياً، وظهرت بدلاً عنها المثالية الخيالية مثل « عش يومك بقدر ما استطعت، وكل شيء قدري، ومفهوم الحياة لقضاء الاحتياجات اليومية والعيش بدون ارادة ».

ضمن هذه الظروف والشروط السائدة في الشرق الاوسط الذي كان وما يزال يرضخ تحت الثقل الديني والمذهبي. والتأثيرات الفلسفية العلمية منها والميتافيزيقية، ولدت هذه الشخصية واستمدت تكوينها من ضعف الارادة وانعدامية الامل، والمستسلمة لحكم القدر في المنطقة بشكل عام وكردستان بشكل خاص. وهكذا فظهور P K K يعتبر انعكاساً لهذه التناقضات، وبتحليله لكل الظروف والشروط، وضع الحلول الثورية لها. فمن خلال شخصية القائد « آبو» ترسخت هذه الافكار والتاثيرات، والخصائص على شكل مبادئ الى ان اتخذت شكلاً للصياغة المعروفة بالفلسفة الآبوجية.

فالفلسفة الآبوجية: هي فلسفة مادية اساسها من الماركسية - اللينينية، وهي مداومة لها ويطورها. وكذلك ليست فلسفة مستقلة او مصطنعة في الوقت الحالي، انما مصدرها كما قلنا من الماركسية - اللينينية، التي تعتمد على التحول والتطور. وطبقتPKK هذه الفلسفة في

المجتمع الكردستاني حسب ظروف المجتمع، وارادت ان تكون جواباً ليس فقط لمسائل كردستان انما لمشاكل العالم اجمع، وذلك طردا مع التقدم والتطور التي ستحرزها. ومن ناحية اخرى، هذه الفلسفة هي تاريخ الانسانية؛ تطبق حاضر الانسانية وتمثل مستقبلها. وبمعنى اخر فان الفلسفة الآبوجية توحد ماضي وحاضر ومستقبل الانسانية وتمزجها وتطبقها في ذاتها، وتحولها الى الممارسة العملية، فعندما يقول القائد «عمري 3000 سنة » هذا يعني ان الشعب الكردسياني يعيش منذ 3000 سنة على هذه الارض، ويمثل الحضارة الانسانية التي ظهرت هنا. وكما ان هذه الفلسفة لا تنكر الفلسفات الاخرى، بل على العكس فإنها تظهر صاحبة لها. وبذلك اصبحت نقطة لالتقاء الجميع. واستطاع القائد آبو ان يجعل جوهرها واحداً ويمثلها ويطبقها في ذاته. وكما جمع فلسفة القائد جميع القيم الانسانية، ووحدها مع حقيقة هذا العصر. وهنا يتضح لنا بانها فلسفة غنية جداً. وهذه الفلسفة هي ملك للشعب الكردي، ولجميع شعوب المنطقة والانسانية جمعاء. والقائد هو اتحاد جميع الجوانب الايجابية لجميع الفلسفات والاديان التي ظهرت في تاريخ البشرية. وهو كالجسر الذي يربط تاريخ الماضي بالمستقبل.

قدمت هذه الفلسفة الحلول اللازمة للمشاكل الكونية وتامين التطور للمجتمع. مثلاً مسألة التكنيك والطبيعة، فاذا لم تاخذ التدابير اللازمة سيحدث خلل فيها، وهنا يوجد تحليلات موسعة لـ PKK بهذا الصدد، وبهذا المعنى فان PKK يقود الاشتراكية العلمية، وكما قلنا هذه الفلسفة ليست مستقلة ولامحايدة مهما تكن وجهة نظرنا لبعض الاشياء، وهذا شيء طبيعي لانه ظهرت حقائق جديدة لم تكن متواجدة في عهد ماركس ولينين.

من خصائص الفلسفة الآبوجية:

ا ـ المعرفة الذاتية: أي الاعتماد على الذات، ومعرفة جميع نواحيها من الارادة، المعرفة، والفهم والشعور .....الخ. بمعرفة الحقيقة يتم خطو الخطوات. وللوصل الى النجاح لابد من الارادة القوية.

ب ـ الامل والتفاءل: فعندما يقدم انسان على عمل ما، وان افتقد التفاؤل والامل حينها يغدو انساناً ميكانيكياً. وهذه الخصوصية اساسية ومهمة، وهذا ما يلاحظ في شخصية القائد آبو واملة بالمستقبل بدون ان يضع حدوداً لها.

ج ـ يناضل لاجل تامين احتياجات المجتمع المعنوية. مثلاً الماديون كانوا يقولون نحن الطليعة وكل مانقوله هو الصحيح، الانهم لم يأمنوا احتياجات المجتمع المعنوية فانهارت مجتمعاتهم. الا ان حركة PKK مغايرة لذلك فهي تقوم بتأمين احيتاجات المجتمع. وكوّن لهذا المجتمع مقدسات معنوية اصبحت جزءاً هاماً من حياة المجتمع (كالشهداء والقائد وحب الانسانية والانسان وغيرها).

د ـ لاينكر ولايرد كل ما في الماضي انما يعيش على الحاضر؛ أي لاينكر ما كان ايجابياً من الاعمال في الماضي، ولكن ما يعيشه الانسان في هذا الان يقوم بتحليله و يحترم ما كان له في الماضي من ايجابيات.

كما نجد ان الانسان هو مركز الفلسفة الآبوجية، لان الانسان هو اساس وديناميكية التطور، ويعتبر الانسان انساناً بعمله وعقله الذي يدخل في خدمة البشرية جمعاء، وباعتبار ان الانسان هو اساس الفلسفة الآبوجية لابد ان يتم وضع جميع الامكانيات في خدمته، وترسيخ الجوانب الروحية والمعنوية، والفكرية لدى هذا الانسان. واظهارها بشكل اكثر فعالية لمعالجة المسائل الانسانية مثال: في الفلسفة الماركسية اللينينية ترفض الجزء من اجل الكل، والتضحية بالفرد من اجل المجتمع. هذا بدون شك خاطئ وليس فلسفة صحيحة، لانك لاتستطيع ان تنكر الشخص لاجل المجتمع، لان المجتمع يتكون من افراد، وكذلك يجب ان لاننسى بان العام يتشكل من الجزء. لهذا فان رفض جزء او جزئين يعني بانه لا يبقى لديك

شيء وفي النتيجة ترفض الكل ايضاً. ويستطيع المرء ان يعرف علاقات الفرد بالمجتمع والغاية والهدف منها. ويقول القائد «لايوجد شيء ننكرهأ». اي لايقبل الاخطاء والنواقص انما كل الجوانب الايجابية يقوم بتطويرها. وكذلك في كل النواحي من الحياة المادية والمعنوية في كل الاوقات، انه لا ينكر الحياة المادية لاجل الحياة المعنوية وكما لاينكر الحياة المعنوية لاجل الحياة المادية، ويربطهما ببعضهما، ولهذا لايجوز انكار الفرد لاجل المجتمع، بل الاثنين مرتبطين ببعضها البعض، وهذا يشكل مبدءاً في الفلسفة الآبوجية.

اذاً فالتطرق الى المسائل الانسانية في المجتمع من الناحية المادية فقط، وعدم اعطاء الاهمية للجانب الروحي والمعنوي يؤدي الى النقص في المجتمع. اما اتحاد الجانبين وربط العلاقة بينهما يؤدي الى التكامل والاصالة، ويتخذ معنى وغنى كبيرين. على سبيل المثال: عندما ناخذ من كل دين الجوانب المعنوية القوية ونوحدها مع الجوانب المعنوية للدين الاخر، وندعم العلاقة بينهما على اساس تشكيل وتوحيد هذه الاديان في تركيبة وبوتقة واحدة، حينها لن يظهر تحكم من قبل اي دين على اخر. فتتقوى هذه التركيبة وتتجه نحو الكمال والتكامل. وعلى هذا الاساس تدخل في خدمة البشرية جمعاء. وهذا لا يعني خلق دين جديد، بل هو اتحاد عناصر جميع الاديان وتماسكها مع بعضها على اساس التكامل والغنى من اجل الغاية العظمى، وهي بذلك تدخل في خدمة البشرية. واثبت هذا في الواقع العملي. حيث ان التماسك والتعمق في جوهر هذه الفلسفة يؤدي بالانسان الى تحقيق اهدافه وغاياته الانسانية، ولايعرف الهزيمة والفشل. وقد تم ذلك من خلال استرجاع الامل والثقة المفقودتين لدى شعوب هذه المنطقة، وكسر وتحطيم الشخصية القدرية، تلك الشخصية المستسلمة التي تنظر دائماً الى الخلف في مسيرتها، وتستمد الهامها من الخيالات والاوهام الغير منطقية، والتي حكم التاريخ عليها بالزوال، هذه الشخصيات ذات آراء وايديولوجيات، وافكار مزيفة، ليست لها اية صلة بالتطور، اي شخصيات لا حول ولاقوة لها، وكذلك مجردة من فيها المبادرة والابداع بحيث تترك كل ما لا يستطيع فهمها وتسفيرها الى قوة عليا، وهي بدون ارادة لان ارادتها بيد المتسلطين عليها، ولا توجد فيها قدرات عقلية وفكرية، ولا تجعلها اساساً في تفسير وتحليل كل الظواهر والاحداث. وكما

قلنا تستند الى قوة خارجية ولاتعتمد على ذاتها. اذاً فهي شخصيات طفيلية وضعيفة، وهي انتاج تلك المجتمعات التي خلفها الاستعمار. وكما يوجد لهذه الشخصيات ضعف في كل المجالات، السياسية، والاجتماعية، والثقافية، وهي بذلك تمثل التخلف والانحطاط، ومثال على ذلك، تلك الشخصية التي تم تكوينها في كردستان والتي ارجعت اوضاعها الى خيالات واوهام غير واقعية. والنظرات الرجعية التي تكونت لديها من قبل الاطراف المسيطرة عليها. فارتباطها الاعمى بالدين وكذلك ارتباطها بالخرافات، وتركها جميع أمورها للقدر وتكون الفلسفة اليومية لديها « عش يومك و غداً فالله كريم »، « ان المصائب والالام التي تتعرض لها هي من البلاء الذي يجلعه الله على الانسان وعلى اعمالهم السيئة »، وغيرها الكثيرة. فهذه الشخصيات تحجرت، وغدت على شكل قوالب جامدة، لذلك لابد ان نتخلص من منطق« المستحيل» و« اللا يجوز » وان يتم تسليحها بالارادة القوية واستخراج كافة الطاقات الذاتية الكامنة على اساس منظم ومبرمج وبهذه الطاقات، يستطيع الانسان الدخول في خضم صراع عنيف مع ذاته، وهذا ما يسميه القائد « بالجهاد الاكبر ».

وباعتبار ان الانسان كائن اجتماعي ومركز في الفلسفة الابوجية، لهذا فقد اولت هذه الفلسفة الاهمية القصوى للعلاقة والرابطة التي تربط الفرد بالمجتمع. واتمام بعضها الاخر. وكذلك عندما نجد في الدين وسيلة الانسان لتحقيق الغايات الانسانية، حينها تستلزم الضرورة الى ترسيخ كافة المبادئ، والافكار والعقائد الدينية، والمذهبية لتكون في خدمة الانسان، كما كانت في عصر السعادة عند ظهور الاسلام. لذا فان PKK يعتبر الدين كثورة اجتماعية ظهرت كحاجة روحية ومعنوية عبر مراحل تطور الانسانية، ولعبت دوراً هاماً في تنظيم حياة الانسان وافكاره، ومعتقداته، واخلاقه.

ادى انقسام الدين على نفسه الى نوشب حروب دامية نتجت عنها مذاهب(سنية وشيعية). يحليل PKK جوهر هذه التناقضات الدينية؛ حيث ينظر اليها بنظرة انتقادية شاملة، فيخرج الجوانب المزيفة منها، ويقوي الجانب الايجابي، كما يحطم القوالب الجامدة. وهنا يظهر وللمرة اولى قيام حزب بثورة في سبيل تطبيق جوهر الاسلام الثوري. ويعبر القائد عن هذه

الحقيقة بقوله: « ان حقيقة PKK هي تطبيق الاشتراكية الثورية والاسلام الثوري بشكل متشابك على واقع كردستان. والذي يدرك ولو القليل من تاريخه، سيعرف بان الاسلام الحقيقي قد احيي مجدداً عن طريق PKK وبانه يعطي اكبر قيمة لخلاص انساننا. وهذا هو هدف الاسلام ». ويحترم PKK جوهر جميع الاديان، ويؤمن وينادي بالحرية والمساواة للجميع. ويقول القائد بهذا الصدد: « نحترم ونقدر عالياً الانطلاقات التي قام بها المذهب العلوي في تاريخ كردستان، وعلاقاتنا مع اتباعه تتعزز وتتطور. وهناك المذهب السني ايضاً وتتبناه بشكل خاص الجماهير الكادحة في جنوب كردستان، وقد وفقنا بجذبها الى صفوفنا، كما نجحنا لحد بعيد في انقاذ شعبنا من ربقة الرجعيين ». وكذلك يقول: « فالدين هوايديولوجية الثورة، وابرز المراحل التي حمل فيه هذا المعنى هو مرحلة الولادة. لذلك فان الانطلاقة هي الحملة الثورية للدين، وان جميع الايديولوجيات في ذلك الوقت كانت دينية اويغلب عليها الطابع الديني. هكذا هو الاسلام ايضاً، انه ثورة سياسية، وقد مهد السبيل لولادة حضارة عظيمة، ولايزال يمتد تاثيرها الى يومنا الراهن، فهذا امر لايمكن انكاره. ونذكر بانه ليس كل ما خلقه الدين سلبي، فثمة تيارات واجنحة داخل الاسلام ، وهي في صراع دائم منذ ولادتها، ويتجسد ذلك بابرز اشكاله في معاوية وعلي بن ابي طالب (كرم الله وجهه) فكل واحد منهم اتخذ بعض القيم اساساً له».

اما بالنسبة للاديان الاخرى، يتم التعامل معها على اساس الجدية التامة، ونستنتج من ذلك بان موقف PKK من الدين موضوعي ومجد للغاية. لذلك فان جميع الواقف الدينية المزيفة والطرائق التي تستمد دعمها من العدو مواقف غير موضوعية بل رجعية في اساسها.

كما يوجد للحرية مكانة هامة في الفلسفة الآبوجية كونها لكل الفئات في المجتمع دون حدود اوتمييز. وان مفاهيم الحب والاحترام، والاخوة والعدالة، والجمال والاخلاق، ليست لها حدود في الآبوجية. وهذا لايعني ترك المجال مفتوحاً امام الانانية الفردية الضيقة، والتحرك حسب الغرائز والعواطف، بل بتنظيم كل شيى ضمن شخصية الانسان، وفي جوهرها، وجعل الارادة والعقل متحكمتان في تسيير وتوجيه الانسان.

ومن ناحية اخرى فعند النظر الى الواقع الاسلامي في يومنا الراهن، نرى الفروقات وقد طغت على جميع الانظمة في الشرق الاوسط، لان الدين اصبح بمثابة وسيلة لاجل الوصول الى السلطة، لبعض لفئات. وبالاخص التي تدافع عن مصالحها دون النظر الى رغبات الشعب، ودون النظر في كيفية تطور المجتمع. وهذه الاطراف او المنظمات او الاحزاب التي تتحدث باسم العقيدة الاسلامية، لاتملك سوى التعصب الديني، البعيد عن جوهر الاسلام. وبهذا التعصب يجعلون المجتمع يسير نحو الانحطاط والابتعاد عن ركب الحضارة. ورغم ذلك مايزال هناك مراكز الصمود في وجه الامبرالية والصهيونية وهي مراكز ثورية في العالم الاسلامي. لذلك لابد ان تكون ملتزمة ومرتبطة بجوهرها الثوري، وتطبق القاعدة الاسلامية التي تنبذ الشوفينية القومية، وتنادي بالمساواة بين جميع الاقوام، والتصميم على استمرار هذه العلاقة بين سائر الشعوب بحيث لايظلم اخ اخاه، ولايظلم المؤمن اخاه مؤمن، وجميع الناس يعاملون بسواسية، لها حق الحياة الحرة، وهذه هي اهم حقيقة من حقائق الاسلام.

للمراة ايضاً مكانة هامة في هذه الفلسفة وتشكل جزءاً منها. فعند النظر الى الاراء المادية الفظة، نجدوها وقد تناولت هذه المسألة ولكن بشكل نظري وضيق. الا ان فلسفة PKK قامت بتطويرها، لان الشروط الموضوعية والذاتية وصلت الى درجة باتت تحتل هذه المسألة مرتبة الصدارة، في القرن الحالي، كونها تشكل جزءاً هاماً من الجتمع، اي نصف المجتمع. فتقرب الفلسفة الفظ منها كونها من احدى التناقضات لم يصل الى ايجاد حلول كاملة لها انما بقيت بشكل غير متكامل. ولكن فلسفة PKK تراها من التناقضات الرئيسية للانسان والتي تستلزم اعطاء حلولٍ لها ويكملها، كونها ذي اهمية بالغة من اجل تطور الديمقراطية، والمجتمع ولاجل السلام، كذلك لاجل تحريرها وخلاصها من عبودية الاف السنين وان تصبح ذو ارادة حرة. وهذا ما تم رؤيته من خلال الدور الذي منحها حزبنا في ساحات النضال ضمن الثورة الكردستانية، وجعلها صاحبة ايديولوجية ليس لتحرير جنسها فقط، انما لتحرير الجنس الاخر ايضاً، وذلك من خلال التحليل العلمي للمجتمع والنظرية الاشتراكية العلمية.

وعلى هذا الاساس نرى بانه مع ولادة PKK وضمن ظروف صعبة دخلت في صراعات مختلفة، بدءاً من العادات والتقاليد العائلية التي تقوم ببناء الشخصية الهزيلة الضعيفة. والتي لاتستطيع التنفس تحت ثقل الظروف المحيطة بها، وانتهاءاً بالانظمة الحاكمة التي لاتخدم مصالح شعوبها، بل جعلتها في خدمة الاعداء وتعيش في صراعات مع جيرانها. هذه الانظمة التابعة والمرتبطة جعلت الصراعات والخلافات تشتد وتزيد اكثر فأكثر بين تلك الشعوب، وافسحت المجال امام هجمات خارجية دائمة تنهب خيرات وموارد المنطقة المادية والمعنوية، وتركت بذلك آثاراً سلبية على المجتمع والانسان. ولكن ظهور PKK لعب دوراً مؤثراً على المنطقة عامة من خلال الشعب الكردي الذي اصبح بمثابة المحرك والطليعة القيادية لشعوب المنطقة عامة. حيث رسخ PKK قواعد واسس التعاون والاخاء والمحبة بين هذه الشعوب، ولم يفرق بين اي طرف واحترم جميع معتقداتهم وعاداتهم واديانهم ومقدساتهم. وكذلك رسخ في الانسان المعنويات العالية، ووجهه الى اهدافه الانسانية السامية التي تخدم جميع الشعوب في المنطقة بشكل عام و الشعب الكردستاني بشكل خاص. وهذا الدور والانطلاقة الاولى كانت بفضل الجهود المستمرة لقيادة القائد (آبو)، وهذا هو الدور الذي مارسته الشخصيات التاريخية التي ظهرت في هذه المنطقة من عيسى و محمد وزردشت وماني وغيرهم. حينما دفعوا الشعوب الى النضال من اجل الاهداف السامية.

هنا يظهر دور PKK الهام من اجل تلاقي وجهات النظر العامة في المنطقة، وتقارب المجتمعات من قيمها المعنوية، بعد ان كانت معرضة للزوال من قبل الافكار الخارجية والحكام الشوفينيين الذين حاولوا اخفاء ممتلكات هذه الشعوب. وكادت ان تقضي عليها نهائياً، من خلال اضعاف مقومات الامم في هذه المنطقة. وهذا الدور واضح وجلي، وهو ما دفع القوى المعادية الى الاتحاد، والهجوم على الطليعة الثورية المتجسدة في PKK، لتنهي بذلك آمال الجماهير في الوحدة والتحرر. ويقول القائد: « تعبر حركتي وكفاحي ونضالي عن الانسانية مع قيمها المعنوية والمادية التي حققتها عبر القرون والعصور على اراضي ميزوبوتاميا». لذلك نرى بان ارتقاء الانسان بمستواه الفكري هو اساس لبناء المجتمع الجديد. وايجاد الوجود الاجتماعي الجديد، سيصبح حاملاً للوعي الجديد لهذه الثورة

باعتبار ان الانسان هو القاعدة الاساسية في بناء المجتمع المتطور والمتقدم.

من هنا كان اهتمام PKK بالانسان كتوجه صحيح وبنظرة علمية ليجعله اكثر تقدماً في افكاره وآرائه، ويوصله الى الارتباط باعلى القيم المعنوية. فقد حاولت الانظمة الحالية والمرتبطة بها ان تزيد التفرقة والكراهية فيمابين الجماهير وتزرع بذور التفرقة والنعرات الطائفية. واجه PKK هذه التحديات لايمانه بانه سينتصر في مسيرته ولاهدافه ومبادئه الانسانية. مهما كانت شكل الانظمة فلتكن، فاننا نقول بان الدور الذي تبناه PKK في تحقيق التلاقي بين انسان ومجتمعات المنطقة مع قيمها المعنوية كان مهماً. وتم ذلك من خلال كفاحه المرير لجمع هذه القيّم في جوهر PKK، وان يصبح قوة روحية ومعنوية للانسان وللوصول الى هذا المستوى من التلاقي وبذلك لم يعترف باية عقبات واجهته، بل فتح احضانه لجميع الجوانب الايجابية لكل الفلسفات والاديان ولم ينكرها، انما قام بتطويرها وتقدمها، لذلك نجد ان باستطاعة أي انسان مهما كانت قوميته وجنسه او دينه او مذهبه ان يحتل له مكاناً ضمن هذه الايديولوجية.

من هنا يتضح ان الجوانب الايجابية في الفلسفة والدين والاشتراكية اتحدّت جوانبها الجوهرية معاً في شخصية القائد آبو، ووحدت مابين جميع المعتقدات والثقافات، والآراء، صاغتها على شكل تركيبة (سنتز) تعبيراً عن حالة التنوع والتعدد والغنى في المنطقة. ونستطيع القول بانه المرة الاولى في تاريخ كردستان تتحقق هذه الصداقة والتقارب بين كافة انواع الاديان بالاضافة الى مذاهبها، وتتخذ مكانتها تحت مظلة واحدة وبقيادة واحدة في سبيل مواكبة ركب الانسانية على اساس التعاون والتسامح والاخاء والسلام العادل.

ج ـ سياسة PKK لدمقرطة الاسلام والحريات الدينية:

قضية دمقرطة الاسلام تعتبر من المسائل والقضايا الاساسية التي تقتضي الطرح السليم، والدراسة الواقعية في عصرنا الراهن. لكن حتى الان لم يتم وضع الحلول الوافية على اسس علمية لهذه المشكلة، والتي تشكل عقبة كبيرة امام جميع الانظمة العصرية في الوقت الراهن. لذلك فان دمقرطة الدين الاسلامي على اسس مبادئ التحرر الاجتماعي

والعقائدي والانساني، ليست من الامور السهلة، ولا يمكن الاستهانة بها. ومن الاسباب التي سهلت لاوروبا حل عقدة الدين المسيحي، أي اجراء التحول الديمقراطي: كتابة الكتاب المقدس عدة مرات، وتأويل القديسين كل على حدا لتعليم الدين المسيحي، و نضج الظروف الموضوعية لاحداث التغييرات والاصلاحات لتتلائم ورح العصر.

كان الطابع العام للعلوم الاجتماعية في القرن الثامن عشر، طابعاً استدلالياً ونقدياً في جوهره، حيث ان العلوم ظهرت الى الوجود، كحركة احتجاج ضد الافكار التقليدية التي كانت فيها الكنائس تسيطر من خلالها على ممارسات الحياة الاجتماعية. فكان هدفها الاول تحطيم الاسس الثقافية والاخلاقية، التي تقوم عليها الصورة التقليدية للمجتمع، وذلك عن طريق النقد الفلسفي. ولكي تخطو اوروبا الخطوات نحو دمقرطة الدين المسيحي وبما يتلائم ومصالح انظمتها السياسية، ومع ضرورة متطلبات العصر الملحة. فانها لم تواجه الدين بشكل مباشر وعلني. حيث لم يكن لاعلان الديمقراطية تأثيراً ظاهراً حتى جاءت مرحلة الاصلاح الديني. فظهرت المذاهب الاصلاحية في اوروبا، مثل اللوثرية في المانيا ، والكالفينية في فرنسا، والانغكيلانية في انكلترا. لترفض بذلك الحكم الكنيسي الكهنوتي ، وتعلن افكارها الدنيوية، وقربها من المجتمع الانساني. وذلك لا يعني رفضها للدين، ولا حتى التصوف، ولكن فقط التشديد نحو حرية الفرد الدينية، وعدم اعتماده الكلي على الخدمات الكنيسية.

حيث تم اعلان ميثاق حقوق الانسان في الحكم ، وحق الانتخاب. وهنا قام طلاب العلوم الانسانية باصلاح الوثائق الاغريقية، اليهودية وترجمتها، وبذلك اضافوا ثقلاً جديداً لسلطة الكتاب المقدس، وبالاعتماد على اللفظ الحرفي لما جاء في الانجيل، تخلصوا من التناقضات التي جاءت على السنة خلفاء بطرس الرسول، فاضطرت البرجوازية التي نمت وتطورت باضطراد بعد ظهورها كطبقة جديدة، وفي البداية ان تخوض نضالها ضد النظام الاقطاعي، الذي بقي واقفاً بالاستناد الى الدين استناداً كلياً، تتطور التيارات الفلسفية خارج الدين بزخم اكبر، وتبدأ بتعزيز مواقعها. حينها شهدت فترة انتقال نشيط من الدين الى الفلسفة. وذلك لان البرجوازية مضطرة لان توجد ايديولوجيتها الخاصة مقابل الدين الذي هو

المنطق الايديولوجي باسم الاقطاع، وتنقل ساحة الصراع الى الميدان السياسي مع مرور الزمن.

لذلك فان اوروبا احدثت التحولات في نظامها السياسي، وحققت الديمقراطية البرجوازية، وحقوق الانسان والحريات المدنية، والاعتقاد الديني، وذلك عبر النضال الفلسفي والايديولوجي الذي خاضها ضد العقائد الدينية الجامدة، وافكارها، وذلك عبر ما خلفته من نظام التعليم والتدريب وتوعية المجتمع وبالاستفادة من منجزات تطور العلوم بجميع مجالاتها، لاضعاف سيطرة الكنيسة في الدولة والسلطة السياسية، وتهيئة الجماهير لتحقيق الانقلابات النوعية بفصل سلطة الدين عن نظام الدولة، ولتتحول بذلك الى مؤسسة روحية ومعنوية لا اكثر في المجتمع، وبذلك ترسخ التجربة الديمقراطية والحريات الدينية والمدنية.

ان دمقرطة الاسلام، هي بحد ذاتها تحرر الدين من العلاقات الجامدة، وخلق مرحلة التعايش مع الافكار والايديولوجيات والاديان الاخرى داخلياً وخارجياً، وترك نمط التفكير الرافض للافكار والبنى السياسية الاخرى والنضال المشترك جنباً الى جنب مع المفاهيم الايديولوجية والسياسية والنظم الاخرى المختلفة. ولكن تواجه الانظمة السياسية ومجتمعاتها عقبات جدية، لدمقرطة الدين الاسلامي في الشرق الاوسط. فظروف الشرق الاوسط وظروف ظهور الدين الاسلامي تختلف عن الظروف التي عاشتها اوروبا. فلتحقيق التحول الديمقراطي في منطقة الشرق الاوسط، يجب رؤية وتحليل هذه العقبات والفروقات ما بين الديانة المسيحية والديانة الاسلامية.

مازالت النقاشات مستمرة حول احداث التحول الديمقراطي في الدين الاسلامي وكيفية حدوث ذلك. ومن العقبات التي تواجه دمقرطة الاسلام:

اولاً : كون النص والايات في القرآن ثابتة وواضحة منذ ١٤٠٠ عام وحتى الان ولا تقبل الجدال عليها قطعاً وتفسيرها واضح ايضاً .

ثانياً: انعكاس القرآن على جميع نواحي الحياة في المجتمع في تلك الفترة، وتفسير وايصال القرآن الى مرحلة يتلائم فيها مع متطلبات واحتياجات المجتمع، وذلك عبر الاحاديث النبوية.

ثالثاً: ان قوانين التشريع الاسلامي لحياة المجتمع المدنية واضحة ولا تقبل الاعتراض والجدال عليها، وليست كالمسيحية التي تمتلك نوعاً من القابلية لتأويلات اخلاقية وحقوقية مختلفة.

رابعاً: كون الدين الاسلامي قد رأى الجانب المعنوي والروحي والنفسي في المجتمع واستطاع ببلاغة واسلوب القرآن، والمقدرة الادبية الخطابية لاحاديث محمد (ص)، ان يدخل الى نفوس الجماهير، ليغدو بذلك سلطة روحية لا ترد. وتصون الدين الاسلامي وتعاليمه، وتصبح بذلك نظاماً فكرياً عقائدياً حتى الوقت الراهن.

خامساً: اعتبار الدين الاسلامي من اخر الاديان السماوية وخاتمة لها.

سادساً: ان الدين الاسلامي ونظام السلطة لم ينفصم عراهما عن البعض حتى الان، مثلاً: مازالت الانظمة السياسية في الشرق الاوسط تحكمها الاطر والمنطلقات الدينية، فما زالت الانظمة تحدد وتشترط في اختيارها للرئيس ان يكون منتمياً الى الدين الاسلامي.

سابعاً: مطلقية الاسلام في احكامه الاخلاقية والفكرية والفلسفية والقانونية والتي ترد بشدة جميع الافكار التي تعارضها وترفضها رفضاً مطلقاً وبشكل صارم.

ولكن لم يتم والى الان تناول الدين الاسلامي ودراسته دراسة علمية ووافية وكيفية دمقرطة الدين ، واعتباره من المهام الملحة. حيث يجب توجيه الانتقادات الفلسفية، والعلمية لهذا الدين ونظامه السياسي. ولذا لابد من اجراء دراسة وافية تاريخية وفلسفية للدين الاسلامي. وباخذ العوامل السابقة بعين الاعتبار يتوضح لنا ، ان دمقرطة الدين ليست من الامور السهلة التي يمكن تحقيقها بدون التعمق فيه. فقد ظهرت اثناء حكم الخلافة الاسلامية العربية والعثمانية، عدة حركات في مجال الطب والفلك والفلسفة التي تم اخذها عن اليونانيين وحضارتهم. أو حتى بشكل ظهور

طرائق ومذاهب، محاولة احداث التغييرات في الدين وشرائعه بما يتلائم و روح العصر. ولكن ظهور هذه الحركات ليست كما هي في المسيحية، اذ ان هذه المذاهب والحركات لم تستطع ان تحدث اية تحولات نوعية في البنية وتركيبة الدين وعقائده، حسب متطلبات التحولات الاجتماعية في المجتمع. بل انغمست في اوحال واوهام الوصول الى الزعامة والخلافة الدينية. لذا زادت من بذور الشقاق والنزاعات. وبدلاً من ان تكوّن زخماً من التيارات الفكرية والفلسفية الجديدة، التي تستلهم قدراتها من تأثيرها على الجماهير الشعبية، لكنها هي ايضاً زادت من قوة وتأثير الخلافة الاسلامية والدين في دوره السلبي الذي لم يمهد بدوره لحدوث اي تغيرات وتطورات ملحة في بنية الدين، ولم يساعد ذلك ايضاً في انتصار الحركات الاصلاحية والمذهبية أو الفلسفية. فعلى سبيل المثال انتشرت عقائد المعتزلة، خلال حكم الخلافة العباسية. وفي بادئ الامراعتنقت هذه المبادئ سراً من قبل عدد من العلماء الخارجين عن الدين والفلسفة، والذين تأثروا بالفلسفة اليونانية القديمة، لكن علماء المذهب السني صادروا كتب فلاسفة المعتزلة واحرقوها، لان المجتمع الذي يرتبط فيه نظام الحكم والقانون والاخلاق بالعقيدة الدينية، يرى في كل خروج عن تلك العقيدة تهديداً خطيراً للنظام الاجتماعي نفسه، وينتهي بالامحاء.

ومن الاسباب التي ادت الى انتصار علماء السنة، وانحصار العلماء الفلاسفة تكمن في وجود خليفة محافظ ومتمسك بدينه ودعم الحرس التركي، وولاء الناس الطبيعي لعقائدهم الموروثة. وفي ذلك الوقت كان الاتراك حديثي العهد بالاسلام، وحاقدين على الفرس، وغريبين عن الفكر اليوناني، فاندفعوا بكل مافيهم من قوة لتأييد السياسة التي ترمي الى نصرة الدين بحد السيف. حيث قاموا باخراج المعتزلة، وغيرهم من المجتهدين عن مناصب الدول، والوظائف التعليمية. وحرم الجهر بالاراء المخالفة لاراء اهل السنة في الفلسفة والادب. اي يلاحظ بانه لم يتم افساح المجال لاي آراء فلسفية جديدة، او حتى الحرية الدينية في الاعتقاد. وهنا يظهر النظام الديني الذي تم فرضه على المجتمع، والذي لم يدع اية حركات اصلاحية للدين نفسه، بل اضطهدها وعمل على الحد من تاثيرها واحراق الكتب التي تبشر بالعهد الجديد. فمثلاً كان اثر ابن رشد العلامة في المسيحية اعظم منه في بلاد الاسلام، فقد اضطهد معاصروه في

الاسلام، ولذلك فان التوفيق فيما بين الفلسفة اليونانية والدين ، ماهي الا مواقف متحاشية لبطش الدين ومذهبه الذي قيد العقل في الوقت الذي كانت المسيحية مقبلة على اخصب عصور الفلسفة.

يمكن تلخيص اسباب عدم انتصار الحركات المذهبية والاصلاحية والفلسفية الجديدة، الى مايلي:

اولاً: تجذر السلطة الدينية في السلطة السياسية (الخلافة) والتي تعارض كل محاولات تجديد واصلاح للدين الاسلامي.

ثانياً: عدم وضوح النهج الفلسفي للطرائق والحركات الفلسفية، بل كان توفيقياً، مابين الفلسفة اليونانية وعقائد الدين.

ثالثاً: لم تستطع ان تستند على بنية طبقية واضحة، وتكون بالموقع المؤثر على روحية الجماهير الشعبية التي تعتنق الدين بتعصب شديد.

رابعاً: لم تكن هناك اصلاً مذاهب اصلاحية تفكر في تطور شريعة الدين الاسلامي.

اما في العهد العثماني فقد منعت جميع المحاولات التي استهدفت اصلاح الدين والحركات التي قامت بها، كذلك حظرت علاقات النظام الجديد وبشكل مطلق تمنع الخروج عن علاقات النظام الاقطاعي المستند على الدين. محافظة بذلك على اسلوب الانتاج الاقطاعي. ومنع ظهور حركات التنوير والنهضة في كافة مجالات الحياة في المجتمع.

من الخطوات الملحة التي يجيب اتباعها اولاً في دمقرطة الدين الاسلامي هي: فصل الدين عن الدولة والسياسة، وابقاء الدين كمؤسسة روحية معنوية لااكثر في المجتمع. وافساح الطريق امام الحريات المدنية، وحرية الاعتقاد الديني، وحرية الفرد في الفكر، كما يجب تحطيم القوالب الجامدة التي وضعها الدين امام مقدرة العقل الانساني على الابداع، والتطويرالخلاق. والنضال ضد كافة انواع التعصب الديني، والمذهبي

وفصله عن النضال السياسي في المجتمع. ولتبقى بذلك وسيلة التواصل الروحي بين الفرد وربه.

اذاً لابد من تحليل ومعرفة الشرق الاوسط، والذي يعاني من تخلف شديد من جميع النواحي الاقتصادية، والفلسفية والعلمية والاجتماعية. وايجاد الحلول لمشاكله. وعلى راس هذه المشاكل، دمقرطة الدين الاسلامي وفق المعايير العصرية. فالانظمة الدينية الاسلامية هي احدى الاسباب التي رسخت التخلف الثقافي والحضاري في مجتمعات الشرق الاوسط، وبشكل مؤثر باتباع سياسات مستندة على التعصب الديني، وجور هذه الانظمة التي ماتزال تستخدم الدين كسلاح سياسي في يدها ضد المعتقدات والمذاهب الاخرى. وان الاعتقاد الديني مترسخ في عقلية المجتمع، والذي يرتبط به بشكل روحي متعصب الى حد ما، ويصونه في نفس الوقت من كل محاولات التغيير، أو الدمقرطة على الاغلب. لذلك فان الاثار السلبية التي خلقتها الانظمة الدينية تناهض اية تطورات وتحولات بنيوية وجذرية، أو حدوث تطور في مجالات العلوم والتقدم الحضاري، واعلاء مبادئ الديمقراطية وحقوق الانسان والحريات المدنية. لذا قام PKK بتحليل هذه الحقائق مجتمعة على اسس نظرية علمية سليمة، واظهار اهم السلبيات التي تشكل العائق امام دمقرطة الدين وايجاد الحلول لها.

تعتمد حركة PKK في تحليلها على اسس علمية واضحة، وتنتقد كافة اشكال التعصب الديني، والقوالب الجامدة التي مازالت راسخة في المجتمع، والتي تمنع حدوث التحول الديمقراطي في المجتمع، وافساح المجال للحريات المدنية والدينية، على اسس ومبادئ المساواة والعدالة والانسانية، والتي تشكل القاعدة الاساسية لبناء الديمقراطية التي تفترض في تمثيلها، تمثيل جميع شرائح وطبقات المجتمع، باديانه ومذاهبه. وضمان مشاركتهم الفعالة في جميع ميادين المجتمع الاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية، ولا يخفى على احد انه لايتم ذلك ان لم تكن هناك الحريات في الاعتقاد الديني والمذهبي. والابتعاد عن مواقف التعصب بكل اشكاله.

ان تحقيق التقارب بين الاديان والمذاهب عبر اظهار القيم الروحية والمعنوية والاخلاقية المشتركة الايجابية، واحداث الحوار البناء السليم، وعلى اسس حضارية لهي من المهام الملحة التي مازالت تناضل

من اجلها حركة PKK. وما الحلول التي طورها القائد الوطني آبو مثل «يجب بناء اكاديميات البحث في الالهيات» الا وسيلة لمعرفة الديانات، والقيم المشتركة بينها، مثل التسامح والعدالة والمساواة وحب العلم، الحق والخير... وما الى ذلك من القيم التي تسهل من دمقرطة الدين. وجوهر سياسة PKK في دمقرطة الانظمة الاسلامية تكمن في فصل الدين عن النظام السياسي، وبناء نظام علماني حضاري، يستطيع بذلك منح الحريات الدينية، وحق المشاركة لكافة افراد المجتمع مهما كان اعتقادهم الديني او المذهبي في الفعاليات الديمقراطية، وحق الترشيح والانتخاب.

ولكن المهة الاخرى والملحة ايضاً هي في النضال وبلاهوادة، ضد كافة الاثار السلبية والقوالب الجامدة التي خلقتها الانظمة الدينية الاسلامية، والتي فرضت على المجتمع الفلسفات الجامدة، والمعادية للتغيير والاصلاح. وما الفلسفة القدرية الا خير مثال عليها، حيث خلقت فرداً في مجتمعات الشرق الاوسط، يقبل واقع هذا المجتمع المتخلف والفقير من جميع نواحي الحياة، كقدر مقدر عليه من عند الله، والابتعاد بذلك عن ورح العصر الخلاقة المبدعة. خلقت فرداً ذو سيكولوجية روحية بعيدة عن روح التطور والخلق المبدع. لذلك فانه من الضروري نقد اثار الدين السلبية على المجتمع الذي رفض في البداية التيارات الفلسفية والفكرية. وتطور المجتمع الذي يعتمد في اسسه على المحاكمة العقلية والمنطقية في تغيير الواقع دون اللجوء الى التفسيير المتيافيزيكي. وللوصول الى حقائق النظام الديمقراطي في مجتمعات الشرق الاوسط، لابد من تنظيم المجتمع وتوعيته بالثقافة الديمقراطية والتأثير عليه من هذا المنطلق. فان لم تتطور الثقافة الديمقراطية ومبادئها في الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية ولم يتم قبولها وفهمها في المجعتمع نفسه، فانه من غير الممكن تحقيق التحول الديمقراطي البناء، ولايمكن ان يتم الحوار البناء بين جميع الاديان والمذاهب، سوى في نظام ديمقراطي سياسي مشترك.

ومن هذا المنطلق فان القائد الوطني آبو يلح وباستمرار على اجراء الحوار البناء بين الاديان وذلك بعد تحليل اسس هذه الاديان، والقيم الانسانية الايجابية المشتركة التي تجمع هذا التنوع الثقافي والديني في

الشرق الاوسط. ولتكن ممهدة للرفاه الاجتماعي الخالي من كل انواع التعصب المعادي للديمقراطية والعلم.

ان القيام بالبحث والتدقيق في الاديان السماوية يشكل الخدمة الجليلة لحركة الديمقراطية في الشرق الاوسط، فانشاء اكاديميات في بحث الالهيات يساعد على تحليل جوهر الدين السليم والقيم الايجابية التي تقرب بين الاديان وتوحدها مع بعضها البعض لخدمة الديمقراطية في المجتمع، وفي المنطقة حتى الان لم يتم التجرؤ على مناقشة مسألة دمقرطة الدين من قبل الانظمة السياسية الحاكمة في المنطقة، وحتى علماء الاجتماع، ايضاً، فان القيام بعمل كهذا سيمهد بسهولة الطريق الى دمقرطة الدين.

د ـ موقف PKK الديمقراطي من التمايز الثقافي في المنطقة.

يرى PKK بان التمايز الثقافي الموجود في المنطقة له جذور تاريخية عميقة، وان هذه التمايزات والاختلافات تستغله العديد من القوى، وبالاخص القوى الامبريالية الرامية الى استخدام هذا التمايز في مواجهة الجماهير، وترى في ذلك ارضية خصبة ومناسبة لتطبيق سياستها المعروفة (فرق ـ تسد). ومن اجل ذلك، تحاول ومنذ القِدم اثارة النعرات الطائفية والتفرقة العنصرية بين هذه الشعوب لكي لايتم التعاون والوحدة فيما بينهم، وان لا يتم تشكيل قوة منهم حتى لا يصبحوا خطراً على مصالح الامبريالية عامة ومصالح السلطات المحلية خاصة. لهذا السبب تتعاون السلطات المحلية مع رؤوسائها الامبرياليين حتى تستطيع بذلك المحافظة على السلطة والسيطرة على الخيرات والموارد المادية، وبنفس الوقت تقدم الامبريالية الدعم والمساندة لها لكي تصل الى مطالبها بسهولة. ولغنى المنطقة بالمواد الاولية ولخيراتها الكثيرة وموقعها الاستراتيجي للعالم. قامت الامبريالية بذرع الكيان الصهيوني منذ فترة طويلة لزعزعة المنطقة وعدم استقرارها وان تكون دائماً في صراعات وتناقضات، ولهذا تقوم بالدعم والمساندة اللامحدودة لهم في يومنا الراهن.ويؤثر هذا الصراع تأثيراً كبيراً على الشعوب العربية عامة.

كما ان السلطات الحاكمة ترى في هذا التمايز فرصة لادامة تسلطهم على رقاب الشعوب مستفيدة بذلك من التناقضات الموجودة. لذلك ترفض كل اتحاد او تعاون فعلي بين هذه الثقافات. وارتباطاتها وتبعيتها ليس لنظام واحد، بل كل سلطة مرتبطة بجبهة معينة تختلف عن الاخرى. وبالرغم من وجود معارضات داخلية لهذه السلطات وتقوم برفض مواقفها، الا ان هذه المعارضات لم تضع اساليب مناسبة للاتحاد او التعاون فيمابينها. مثال ذلك القوات المعارضة في اغلب دول منطقة الشرق الاوسط بشكل عام وفي العراق بشكل خاص. فحتى الان لم يستطيعوا ايجاد اساليب مناسبة لكي يتحدوا فيما بينهم. ويصلوا بها الى تشكيل معارضة قوية ومتماسكة رغم اختلافاتها القومية. وهذا نابع من ارتباطها بالقوى الخارجية وعدم اعتمادها على قواها الذاتية في تنظيم جماهيرها. لهذا نراهم في صراع وتناقضات تستمد بنيتها من ماضيهم وتستمر حتى الان. ولا يمكنهم الوصول الى اهدافهم بهذه الاساليب الكلاسيكية، لان اهدافهم لا تخدم الشعب، بل هناك فئات قليلة يستغلون هذا الوضع لصالحهم وتحقيق مآربهم.

كما ان شعوب المنطقة ايضاً لم تر الحاجة ولم تحس بالتعاون الثقافي بينها ورضيت بواقعها المتناقض، ولم يسعوا الى المزيد من التعاون والتماسك لاغناء بعضهم البعض. أو فرض حلول بديلة عن تلك الانظمة الحاكمة والتي لا تسعى الا الى تحقيق مصالح اعدائها. ومن السهولة جداً رؤية تلك التناقضات والصراعات التي شهدتها القرنان المنصرمان من خلال النتائج الجديدة التي تشهدها البشرية في المنطقة والتي يصفها القائد آبو بقوله: « يمكن القول بانها منطقة تعيش فيها مخلفات القرون الوسطى بعمق، كذلك تعيش وبشكل متداخل مع راسمالية الدولة البيروقراطية والبرجوازية الغاصبة الغير متطورة. حقاً انه تناقض صارخ بين تاريخها المجيد والتقدم الراهن. وينعكس هذا التناقض في سائر المجالات(الدين، اللغة، الثقافة، الأثن، الطبقة، الجنس، البيئة،) وقد افلست المواقف الدينية والقومية لحل الصراعات والمشاكل القائمة. لذلك هي بأمس الحاجة الى الحلول الديمقراطية ـ السلمية. ويعتبر مصطلح وشعار وحدة الشرق الاوسط الديمقراطية، الصيغة الامثل للتجاوب مع التطور التاريخي».

شهدت هذه المنطقة اثار التقسيم والتجزئة في الربع الاول من القرن الماضي. وتلك الفترة اسفرت عن تمزيق السيطرة الاقطاعية في بعض المناطق والتي اغلقت المنطقة امام التطور والتحول، ولم تحدث تطور بالديناميكيات الداخلية. ولم تؤدي الى تطور ووحدة الشعوب من الناحية القومية والاجتماعية.

نستطيع القول: بان المنطقة بتناقضاتها الموجودة لم تحظ بنصيبها من الحل. ولكنها وصلت الى مستوى النضوج التام من اجل حل مشاكلها. وتحقق هذا نتيجة لنضالات مستمرة رافقتها صراعات وآلام كثيرة. مثلاً حرب المقاومة الوطنية التي نشبت في كردستان، كشفت عن جميع التناقضات القائمة في المنطقة برمتها بشكل جيد، وفرضت حلولها واكدت على ان اسلوب العنف قد ادى الوظيفة التي يمكن ادائها، ولايمكن حل الصراعات والتناقضات بها حلاً جذرياً. اذاً فالشرق الاوسط بوضعه الراهن يتعارض مع التطورات الجارية على الصعيد العالمي، ومتخلف كثيراً عن عصر الديمقراطيات والحريات. لذلك من الضروري البحث عن حلول للمشاكل وفق الاساليب الديمقراطية السلمية، وفتح السبل امام مجتمعات المنطقة لتحقيق المزيد من التطور. ولا يتم هذا التطور بمواقف التمزيق والتجزئة والانفصال. والجدير بالذكر ان افدح الاضرار لحقت بشعوب ومجتمعات المنطقة بسبب هذه المواقف. لذلك لابد من اجتيازها واللجوء الى الوحدة والتضامن، واعتماد العمل المشترك وضمان الاساليب النضالية الصحيحة في سبيل حل المشاكل. وبهذا الموقف يتم ازالة الكثير من عوامل التقسيم والتجزئة القومية وبناء الوحدة والتنظيم والتطور الداخلي لسائر القوميات، واتاحة الامكانيات لبناء علاقات سليمة وصحيحة وتعزيز التعاون مع الشعوب والقوميات الاخرى. وعلى هذا الاساس ستتم تطورات مهمة. ولهذا فان المنطقة بامس الحاجة الى اتباع اساليب التعاون والاتحاد اللازم. ومن اجل تحقيق النتيجة يجب التخلص من المواقف والمفاهيم الانتهازية والسياسات المتناقضة لها.

لذا فان الموقف الديمقراطي لـ PKK من هذه التمايزات الثقافية الموجودة في المنطقة هو موقف انساني يسعى الى خلق الحلول المناسبة لمشاكل هذه الشعوب من خلال التعاون في كافة المجالات. وكما تعتبر هذه

التمـايزات ارضـية مناسـبة لاجـل تحقيـق الاتحـاد الحـر فيمـابين شـعوب المنطقة. ولكي يتحقق هذا لابد من رفض جميع المواقف المناقضة لذلك، والتي لا تخدم مصالح الشعوب. وتبعدها عن بعضها البعض. لهذا السبب لابد ايضاً من ازالة العناصر التي تؤدي الى التفرقة ما بين الثقافات الموجودة. والدعوة الى مبدأ الحوار فيمابين جميع الفئات والجماعات والمذاهب والاديان كافة. واجراء نقاشات موسعة بصدد ذلك، للوصول الى حل لجميع المشاكل الموجودة، على اسس الاحترام المتبادل والمنفعة المشتركة والتعاون والوحدة الحرة لكافة الثقافات الموجودة. اذاً النهوض بمهمة التحول الاجتماعي والاتحاد الحر مرهون بوجود تنظيم سياسي يستنهض اغلبية الجماهير الشعبية على اختلاف قومياتها واديانها واجناسها في حركة ديمقراطية موحدة، وهي وحدها قادرة على صياغة برنامج يتجاوب مع اماني وامال شعوبنا في تحقيق الديمقراطية والحرية. فالحركة التحررية الكردية المتمثلة في طليعتها PKK التي تمثل كل ما طرحناه، تستند في جوهرها الى المبدأ الانساني. وقد القت على عاتقها مهمة تحرير الانسانية. وقدمت الحلول الناتجة لملئ الفراغ السياسي الذي يستخدمه كل المستغلين في المنطقة. وكما بادر الى استخدام المواقف الحضارية لهذا التنوع الثقافي، بجذبها وجمعها في ظل نظام ديمقراطي يسوده الحرية والمساواة بين الجميع.

الدور الذي سيلعبه شعبنا في هذا الاطار سيكون تاريخياً، كونه منتشر في هذه المنطقة بشكل واسع ويتعايش مع جميع شعوب المنطقة من فارسية وعربية وتركية واشورية وارمنية وتركمانية وغيرها. ونتيجة لهذه الظروف فهو مّطلع ومعاشر للكثير من الثقافات عبر تاريخه الطويل وشارك في تطوير معظمها فعلياً ويقول القائد آبو بهذا الصدد: (يعتبرالشعب الكردستاني المحرك الاساسي لتطبيق الديمقراطية في منطقة الشرق الاوسط). ومن جهة اخرى فان الروح الوطنية التي ظهرت لدى شعبنا في نضاله الثوري، كونت لديه قوة معنوية يستطيع بها ان يحصل على هويته وحقوقه المشروعة، ويعيش في سلام مع الشعوب الاخرى بالمساواة والحرية. كونه متمسك بفكره وايديولوجيته الثورية ويسير خلف طليعته المتمثلة في شخصية القائد آبو وفلسفته التي تشكل تركيبة (سنتز) جميع الافكار والفلسفات التي تخدم البشرية جمعاء. وفي هذا الاطار يعتبر شعبنا

جسراً وقوة رئيسية للتحول الديمقراطي والاتحاد الديمقراطي الشرق الاوسطي.

هـ ـ استراتيجية PKK لبناء الاتحاد الحر للمعتقدات والثقافات المختلفة في المنطقة.

كانت حقيقة الشعب الكردستاني في حالة منسية سواء من قبل القوى الصديقة أوالقوى المعادية، وحتى الشعب الكردستاني نفسه كان ينكر حقيقته ويتهرب من هويته، ويعيش حالة من العداوات والصراعات الداخلية. فلم يكن منقسماً الى اربعة اجزاء فحسب، بل تشتت وانقسم حتى وصلت هذه التجزئة الى افراد العائلة الواحدة. لذلك لابد ان يتم تحليل الواقع بشكل علمي سليم، وماهية التناقضات الموجودة، وكيفية ايجاد الحلول السليمة لهذه القضايا..؟ التي تعد من القضايا الحساسة التي تفرض نفسها على مختلف الامم والمجتمعات في عصرنا الراهن. حيث يشهد العالم في يومنا الراهن تحولات جذرية وبنيوية من جميع النواحي. فيتم تجاوز الانظمة التقليدية ذات المعايير الكلاسيكية، التي لا تستطيع ان تملك آفاق الحلول الجذرية لجميع التنقاضات، سواء اكانت قومية اوطبقية أو دينية، وما الى ذلك من التناقضات.

منطقة الشرق الاوسط هي احدى المناطق التي تضم في بنيانها ديانات، ومعتقدات وقوميات عدة، والتي عاشت فيما بينها صدامات دامية حادة، وصلت الى درجة ترسيخ شروخ كبيرة في بنية هذه المجتمعات، والتي نراها اليوم ملزمة على ايجاد الحلول الجذرية، ووفق المعايير العصرية. لذلك عاشت منطقة الشرق الاوسط حالة من اللاستقرار، والتحول الى بؤرة للصراعات الى يومنا الراهن.

يأتي اهمية موقع كردستان الذي لا يقل اهمية عن موقع المنطقة، لكونه يشكل مركزاً هاماً في هذه المنطقة، ويلعب دور المفتاح للمنطقة لاستراتيجيته. ومنذ القديم كانت كردستان ذات اهمية كبيرة في نشر اثار حضارات العصور القديمة الاولى والوسطى في قارات آسيا وافريقيا واوروبا. وتزداد اهمية كردستان لموقعها الجغرافي والسياسي ولغناها

بالمصادر البترولية، والثروات المعدنية مماجعلها تحتل مكانة بارزة على الساحة الدولية. ولكون الكرد هم من اقدم الشعوب وذوي ثقافة اصيلة واستقروا في ميزوبوتاميا، اتخذوها موطناً لهم، لذا كان لهم الدور الرئيسي في اتحاد شعوب المنطقة. ويظهر هذا بشكل جلي في حروبهم مع الاشوريين، فبعد ان تعززت قوة الميديين وتحالف مع شعوب المنطقة وبالاخص مع البابليين والفرس حينها استولوا على نينوى في ٦١٢ ق.م واضعين نهاية للامبراطورية الاشورية. فالتاريخ يشهد مقاومات هذا الشعب ليس فقط في نينوى، بل ايضاً عندما بدأ الغزو المغولي على المنطقة، تصدى لهم الكرد من اجل حماية حدود الدولة الاسلامية من الشرق.

كذلك عبّر الكرد خلال جميع المراحل التي عاشوها في المنطقة عن تلاحمهم الحياتي مع شعوبها، وتاصرهم على اساس الاتحاد، وتمتين العلاقات في اطار وحدة شعوب الشرق الاوسط. وتوثق هذا الارتباط اكثر في القرن الحادي عشر من خلال الدور الذي لعبه الكرد في تمثيل مصالح الشعوب المسلمة في المنطقة. ولكي تتم مواجهة الحملات الصليبية؛ حيث توثقت هذه العلاقة بين الكرد والعرب في ظل الدولة الايوبية تحت قيادة صلاح الدين الايوبي، لمواجهة الجيوش الصليبية. حتى وصل الامر الى ردع تلك الجيوش وتحطيمها في معركة حطين، وبعدها سادت المنطقة مرحلة من الوئام والسلام في ظل حكم الايوبيين، بين جميع شعوب المنطقة. وهكذا قام الكرد بدور ريادي بين هذه الشعوب لتمتين اواصر الوحدة فيما بينها. واليوم ينهض PKK بهذا الدور الريادي في مسيرته النضالية القاسية وحتى الان. وذلك لكونه بحث وحلل الظروف المعاشة في الشرق الاوسط على اسس علمية سليمة، وقيم الحملات الخارجية التي استهدفت المنطقة واستقرارها.

ان التركيبة البنيوية لبنية مجتمعات الشرق الاوسط، هي التي ادت الى استمرار السيطرة غير الديمقراطية، والتي تؤدي الى تفاقم استمرار المشاكل الموجودة. فالوضع القائم حتى الان يشكل عقبة تعيق تطور الشعوب على اساس مبادئ الحرية والمساواة، ويعرض تطور المنطقة للضمور التام، ففي الوقت الذي فرضت فيه عمليات الابادة على

الشعوب المتحكمة فيها، قامت الانظمة الحاكمة باستنزاف طاقاتها في سبيل استمرار السيطرة، وحكمت على شعوبها ببقائها رازحة في حالة من التخلف والتعصب، ويمكن رؤية اوضح الامثلة في علاقات الشعوب الكردية والعربية والتركية والفارسية. حيث اخذت التناقضات التي تعاني منها هذه الشعوب والمستمرة حتى الان، تزداد عمقاً وترسخاً، ومسببة للتدخلات المباشرة والغير مباشرة لسياسات القوى الخارجية في المنطقة. فاستمرار هذه التناقضات التي تحولت الى عقدة صعبة، لاتخدم مصالح اي شعب من شعوب المنطقة.

ومع حدوث التحول الاجتماعي وميلاد الطبقات، ولدت الدول، وانماط ادارات مختلفة واكتسبت تجارب كبيرة مؤكدة ان الطراز الديمقراطي هو الافضل. وخاصة في الاونة الاخيرة التي شهدت زخم من التطورات السريعة في بنية الانظمة السياسية، والمجتمعات في العالم. وهذا بالتالي اثر على اشكال وانماط الانظمة الحاكمة في المنطقة. ولقد تكون في يومنا هذا لدى شعوب المنطقة فكرة حل جميع قضاياها بالسبل السلمية، والحوار الديمقراطي. وفي وقت تثير فيه القوى الامبريالية الفتنة والصراعات، والتي ترغب في احكام سيطرتها كنظام وحيد باق لابديل عنه في بداية القرن الواحد والعشرون.

ان سياسات الامبريالية واثار مخلفات القرون الوسطى التي تريد ترسيخها في بنية مجتمعات المنطقة، تشكل مجتمعة احدى اهم العوائق امام تطور العملية الديمقراطية على اساس الاتحاد الحر لهذه المجتمعات. فالبنية الاوليغارشية المترسخة في بنية الانظمة البرجوازية الكمبرادورديه الحاكمة للاقتصاد والراسمال العالمي، وعبر ما يشوبها من التزمت التقليدي القومي والديني، تعارض التحول الديمقراطي والاتحاد الحر لشعوب المنطقة. فلا تريد ان تنتهي التناقضات والصراعات القائمة. ولكن الظروف تفرض الاتحاد الحر والتحول الديمقراطي والذي بدوره يشكل الوسيلة الانسب لحل جميع القضايا. واذا استطاع الشعب الكردي ان يحل مشاكله مع الدول الحاكمة على اساس مشروع الجمهورية الديمقراطية وبشكل يضمن له على اساس مبدأ الحرية، هويته وانتمائه القومي، حينها سيقوم بالدور الريادي لبناء اتحادات شعوب المنطقة الحرة الديمقراطية،

وستكون بذلك بداية لعصر نهضة حضارية شرق اوسطية، تضاهي ما وصلت اليه اوروبا من التقدم والرفاه الاجتماعي.

كل الدول الحاكمة على كردستان تتألف من بنية متشكلة من عدة اديان وعقائد ومذاهب، وهي غنى وتنوع ثقافي لا مثيل له. ففي تركيا نشاهد المسلمين (السنة والعلويين) والمسيحيين والارمن والاشوريين ، والاتراك والعرب والكرد والشركس واللاظ... و ما الى ذلك من الانتماءات القومية. كذلك العراق فيها العرب المسلمين من الشيعة والسنة والكرد المسلمين السنة واليزيديين، والتركمان والاشوريين والتي تماثل فيه هذا التنوع في الاديان والثقافات، والانتماءات القومية، التي يمكن ان تجتمع في اتحادات فيدرالية في ظل جمهورية عراقية ديمقراطية ذات غنى وتنوع حضاري انساني.

كما ان ايران بموقعها الجيوبوليتكي الهام، وما فيها من منابع الحضارة والتاريخ العريق الذي يمتد لالاف السنين، وبكونها ارض خصبة احتضنت العديد من الحضارات كالاشورية، الميدية ، البارسية ، الساسانية، وغيرها من الحضارات. ولكن علاقة الاكراد والفرس قد اتخدت شكلاً يختلف عن مثيلاتها من الشعوب الاخرى. فبفضل التقارب الكبير من التاريخ والدين واللغة والثقافة بين الشعبين، احتل الكرد موقعهم الى جانب الفرس في الدفاع عن الوطن المشترك تجاه الاخطار الخارجية. لذلك وبالنظر الى هذه المنطقة الغنية ذات الحضارة العريقة، وكونها مركزاً للنور والحضارة، ولديانات كونية عدة، نرى بان هذه التركيبة الموجودة فيها هي نتيجة جهود الانسان وفكره وتلاحمه مع الوسط المحيط به، واتخذت هذه التركيبة شكلها الاخير علاساس التأثيرات المتبادلة، ومراحل التطور المختلفة التي مرت بها تلك الحضارات في العالم.

فتاريخ الشرق الاوسط المتمركز في ميزوبوتاميا هو تاريخ متداخل ومشترك، لديانات ومعتقدات مختلفة، وحتى لبنى اجتماعية واقتصادية متمايزة، لكنها متحدة في بوتقة واحدة متلاحمة، وكونت اتحادات قوية، استحدثت اقوى الايديولوجيات التي ما تزال مؤثرة حتى اليوم. ورغم كل هذه الجوانب الايجابية، فان منطقة الشرق الاوسط

اصبحت منطقة تعاني التجزئة والتفسخ وذلك نتيجة اطماع القوى الاستعمارية في المنطقة.

ولتجاوز هذه الاوضاع من الاضطرابات، والتناقضات الدينية والقومية، فلا بد من اجتياز المنظور القومي الضيق الافق، والاستبداد الثقافي، والدوغمائية الايديولوجية. والجدير بالذكر ان التناقضات والصراعات التي تعاني منها المنطقة منذ البداية وحتى الان، تسبب الالام الكبيرة لشعوبها، وباتت هذه المشاكل تفرض حلولها بشكل عاجل. واصبح PKK لسان الحل لهذه المشكلة وخاصة بفضل الحلول المقدمة والتي رفعت من شأن PKK وجعلتها كقوة طليعية بين سائر القوى التقدمية في المنطقة، والنضالات التي تخوضها من اجل ايصال هذه المشاكل الى حلولها.

فولادة PKK اتت في ظروف يراد فيها تعريض الشعب الكردي ووجوده، الى الزوال من مسرح التاريخ، دون ان يعايش مرحلة التحول القومي بجميع جوانبه. وهو كحركة يمثل الهوية والوجود والانبعاث القومي في مواجهة الابادة. ولذا فان pkk حركةانبعاث ونهضة في هذه الظروف التي تعيشها المنطقة من الازمات والصراعات الحادة. وبالنظر الى PKK من جميع النواحي يتضح لنا بانه ميلاد جديد بالنسبة لتاريخ الشعب الكردي ومنعطفاً حاسماً له.

عبرت حركة PKK تحت قيادة القائد الوطني آبو عن جدارتها لتمثيل هذا التنوع الثقافي والديني والحضاري في المنطقة. وتمثيل القيم الايجابية التي خلقتها على اساس تطوير استراتيجة الاتحاد الحر الديمقراطي، والحل الديمقراطي السلمي لهذه القضايا الحساسة في المنطقة. فالحل الديمقراطي وفق منطلق استراتيجية PKK الجديدة، هو الحل الامثل فيما يتعلق بقضايا اللغة، والثقافة، والاعتقاد الديني والتناقضات التي تشوبها. فمن الممكن ان تتحقق الديمقراطية بالاستناد الى الغنى الثقافي وتنوعه بين شعوب المنطقة، والتي يمكن بها كطريق للحل ان تمثل هذا التنوع والتداخل في ثقافات واديان المنطقة، فهي ثروة غنية تزيد وتمهد من تقارب الشعوب من بعضها البعض وتعايشها ايضاً.

وقد اثبتت نجاحات النظام الديمقراطي كنظام اجتماعي عادل في العديد من الاقطار في العالم. وعلى سبيل المثال سويسرا التي تمثل

التجربة الاوروبية في الحل الديمقراطي لقضاياها ومشاكلها المختلفة، الدينية والمذهبية والثقافية والقومية، فبعد الصراع المذهبي الذي استمر لقرون طويلة، وصلوا الى الصيغة المشتركة التي ترضي الجميع، وتآلف بينهم على اساس نظام فيدرالي يتم فيه الاعتراف باربعة لغات رسمية، هي الالمانية، والفرنسية، والايطالية، وفي الاونة الاخيرة تم الاعتراف باللغة الرابعة لاقلية ذات لغة ايطالية محرفة عن الالمانية تسمى رومانشية في مقاطعة غريسونس، وهناك ايضاً مذاهب مسيحية مختلفة تتآلف فيمابينها في ظل حكم ديمقراطي. وكذلك هناك مثال اخر عن الانكليز، ونظامهم الدستوري الذي يشكل افضل تطبيق في العالم. وهو البلد الذي يحل قضاياه بالديمقراطية، وبالنقاش الحضاري. علماً بان انكلترا تتألف من الاسكوتلانديين، والغال والايرلنديين، من البروتستانت والكاثوليك، ومن الارستقراطيين والعوام والصناعيين.

لكن منطقة الشرق الاوسط بحاجة الى معايشة تجربة الديمقراطية حسب ظروف وشروط المنطقة. والتي شهدت الصراعات والحروب القومية والدينية المذهبية بشكل دامي. بعد ان استولت الانظمة الاوتوقراطية على مقاليد الحكم في المنطقة. واليوم نجد ان استراتيجية PKK الجديدة تهدف الى تطوير اسس الحل الديمقراطي البناء لاهم القضايا والمشاكل الحساسة في منطقة الشرق الاوسط، على اساس بناء الجمهورية الديمقراطية الحرة وفق نظام علماني يخلو من اي تعصب ديني أو عرقي قومي.

بحلول القرن الواحد والعشرين نضجت الظروف الموضوعية لحل التناقضات والصراعات الموجودة التي تعاني منها شعوب المنطقة، واصبح الحل الديمقراطي من الضرورات الملحة وذلك تجاوباً مع هذا العصر. وهذه الاستراتيجية التي هي بمثابة الانعطاف الحاسم والتحول الكبير في استراتيجية الحزب، فهي مانيفستو الحل الديمقراطي للقضية الكردية والارضية الممهدة لحل جميع مشاكل المنطقة. والتي بدأت في امرالي، واعلان القائد آبو فيها عن تحقيق التحولات والتغيرات الاستراتيجية. وتشكل بذلك القفزة النوعية لحل العقدة التي استمرت عشرات السنين بل مئات السنين، ولتمهد للثورة التحولات الديمقراطية في

الشرق الاوسط. والسعي لتطوير الاشتراكية العلمية على الصعيد الايديولوجي العلمي، لتخلق الانبعاث والنهضة الحضارية من جديد. والتي كانت من قبل مشعل الحضارة الانسانية. وسيتم ذلك عبر التقارب والحوار الديمقراطي البناء بين مختلف المعتقدات الدينية والمذهبية والقوميات المختلفة في ثقافاتها ولغاتها تحت لواء الاتحاد الحر الديمقراطي الذي يضمن لها حقوقها المشروع

الخاتمة:

من الحقائق المسلم بها حتى الان، ولايمكن التغاضي عنها، هي بقاء الثقافات والعقائد الدينية بتأثيراتها الروحية رغم جميع حملات عصر النهضة، وما حققته الثورة الصناعية في اوروبا من تقدم علمي وفي مجالات العلوم الطبيعية، والفلكية والفلسفات الجديدة، وفي المراحل الاخيرة الثورة التقنية والتكنولوجية، وما حققته من منجزات واكتشافات جديدة، فمازال الدين يحافظ على وجوده في عقول الناس باعتقاداتهم ونمط تفكيرهم، بالرغم من بعض التحولات التي اجرتها اوروبا في انظمتها الديمقراطية لذلك فانه لم يتم وضع الاسس النظرية والعملية لنهج الحل الجذري لكيفية الاقتراب من الدين في الانظمة العصرية، التي تهدف الى اجراء التحول الديمقراطي في انظمتها. فهي من الامور التي تفرض على المجتمعات الحديثة ايجاد الحلول الصحيحة والسليمة ووفق المقاييس العصرية لها. ولكن هنا يمكن طرح اسئلة مهمة تستوجب الاجابة عليها، فما الداعي الى اخذ المسألة بعين الاعتبار لهذه الدرجة كضرورة لايجاد الحل لها..؟ وماهي المعايير العصرية العلمية للاقتراب من الدين في المجتمع..؟ وما النتائج المحتملة لعدم اخذ المشكلة بعين الاعتبار..؟ ولايجاد الحلول لها، لابد من تناول الدين وفق دراسة تحليلية علمية وتاريخية، اصوله واسسه الروحية والعقائدية.

يلاحظ اليوم ان منطقة الشرق الاوسط هي احدى المناطق الحساسة في العالم التي تعاني من نتائج التناقضات والخلافات الدينية والعقائدية،

والتي لم يتم وضع منطلق حل سليم ديقراطي لهذه المسائل، وبذلك سببت في انقسامات شديدة ضمن بنية المجتمع، وذلك نتيجة لازدياد حدة التزمت، والتعصب الديني والعقائدي بين الجماهير الشعبية. حيث يجري استخدام سلاح الدين من قبل الانظمة والقوى الرجعية والامبريالية ضد عمليات التحول الديمقراطي، والتقدم الحضاري لدى مجتمعات الشرق الاوسط. وما التناقضات الاسرائيلية ـ العربية، والايرانية ـ العربية، وحرب الطوائف والمذاهب في لبنان والجزائر الا دليل على ذلك. ولكن لو تم الوصول لايجاد الحلول الجذرية لمسائل الدين في الشرق الاوسط، فان المنطقة ستشهد تحولات جذرية قد تؤدي الى تطور الديمقراطية في الانظمة السائدة في المنطقة، والتقدم الاجتماعي والحضاري، واللحاق بركب الحضارة الانسانية. وهي تحولات لا يمكن التكهن بتفاصيلها او درجتها فمن الضرورات الملحة، هي ابداء روح التعايش الحر بين الاديان والثقافات المختلفة مع بعضها البعض. لانه توجد هناك القيم المشتركة بين هذه الاديان التي تقربها من بعضها. ويقول القائد مشيراً الى اهمية تطوير الديمقراطية وحل مسألة الاديان: « وان نجاحنا في القضاء على تأثير الطرائق الدينية، قَدَمَ اجلّ الخدمات للديمقراطية »، كما يشير الى اخطار اليسار بالتنكر للدين: « لقد فهمنا وحللنا الدين بشكل صحيح وتفادينا الخطأ التقليدي الذي وقعت فيه الحركة اليسارية، والمتمثل في انكار الدين أو تناوله بشكل مشوه للغاية، لقد تفادينا هذا الخطأ، وفهمنا وحللنا الدين بشكل صحيح». لذلك يجب الاقتراب بموضوعية وجدية من الدين لتخليص المجتمعات من الاثار السلبية التي تدعو الى استخدام الدين كغطاء وسلاح فعال ضد نهضة وتقدم مجتمعات الشرق الاوسطية على الاخص. لذا يجب ان يكون الدين بمعتقداته في خدمة تطور الفكر والعلم وان لا يخدم الرجعية ومرتكزاتها في المنطقة.

لذا فان تقييم الجوهر الايجابي للدين واستخدامه كسلاح فعال في القضاء على مرتكزات الرجعية يتمتع باهمية كبيرة. واستيعاب هذه الحقيقة ووضعها موضع التنفيذ بشكل صحيح، يحقق للثورة تطوراً ملحوظاً، ويعطيها دفعاً قوياً. وتساهم بذلك في تمكين تقاليد شعوب الشرق الاوسط من الخلاص من المفاهيم الخاطئة، واحياء القيم الحضارية، العظيمة وتطويرها على اسس اكثر حرية وهذا بحد ذاته احد اهم اهداف الثورة.

وكذلك من الامور التي يجب عدم اهمالها هي احترام معتقدات الجماهير الشعبية الدينية واعطاء القيمة لثقافاتها المتنوعة، واعادة النظر فيها وتنظيمها، وتحويل المواعظ الدينية الى مواعظ للنهضة والنهوض في وجه التخلف والرجعية والامبريالية والاستعمارية بكافة اشكالها، وتحويل المساجد والكنائس والمعابد والاديرة الى مراكز لانطلاقة النهضة، وتنظيم ونشر وتوزيع وحدات المقاومة والتصدي لكل اشكال التخلف التي ذكرناها.

في اطار هذا الهدف وحتى تكون شعوب الشرق الاوسط هي المعنية، فان الموقف الاصح هو تعاملها الصحيح مع تاريخها. اي تعامل شعوبها واحترامها لبعضها وعدم انكار البعض الاخر. كما تم انكار شعبنا الكردي خلال مئات السنين رغم بذله الجهود الكبيرة في سبيل تطور حضارة الشرق الاوسط، ولعبه دور الجسر في تاريخه بين شعوب المنطقة من خلال قيادته لهذه الشعوب ضد الحملات الخارجية. لذلك لابد من النظر الى ذلك بكل علمية وعدم استعمال اساليب الابادة والانكار لان العصر لا يقبل ذلك. وحتى ان جوهر الاديان ايضاً لا يقبل ذلك. ولاجل وصول منظمات وانظمة الحكم في المنطقة الى حل لمشاكلها لابد قبل كل شيء من اجراء الحوار بين شعوبها بشكل ديمقراطي وعلى اساس الاتحاد الحر الديمقراطي والاتحاد في ثقافاتها ومعتقداتها والاستفادة من التجارب السابقة التي شهدها التاريخ.

لذلك راينا بانه من الاسباب التي رسخت التخلف عن ركب الحضارة والتقدم الانساني، هي اتباع اسوأ الاساليب في استغلال الدين وانكار حقوق بعض الشعوب تحت هذا الاسم، لذا فان حل هذه المسألة واظهار حقيقة الدين سيؤدي الى الانفتاح والتطور في بنية مجتمعات المنطقة. وبذلك تترسخ دعائم الاخوة والمساواة والتعايش الحر في التجربة الديمقراطية الشاملة في المنطقة والتي تنتظرها جميع الشعوب بطلوع القرن الواحد والعشرين.